مجلة الصحافة

العدد (35) | السنة التاسعة | خريف 2024

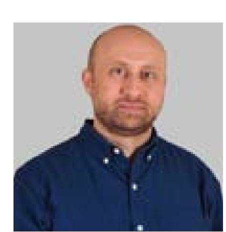
الصحافة والجنوب العالمي..
رحلة البحث عن المعنى



معهد
الجزيرة للإعلام

محتويات العدد

كتّاب المجلة



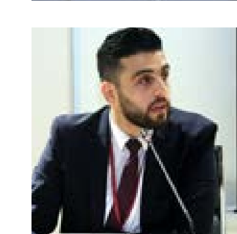
حسن عبيد

حاصل على دكتوراه في العلوم السياسية ومختص في شؤون الحركات الاجتماعية.



هدى أبو هاشم

صحفية أردنية مستقلة.



أحمد رضوان

صحفي فلسطيني، عمل في عدة مؤسسات إعلامية فلسطينية وقطرية. حاصل على درجة الماجستير في الصحافة وباحث في منصات التواصل الاجتماعي.



علا مرشود

صحفية وباحثة في دراسات الشرق الأوسط.



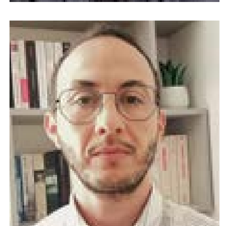
خلدون شامي

أستاذ الفيلم الوثائقي - جامعة إيست آنجليا البريطانية.



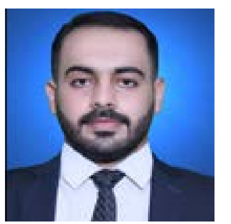
شعراوي محمد

مذيع ومقدم برامج في قناة الخرطوم والبلد سابقا.



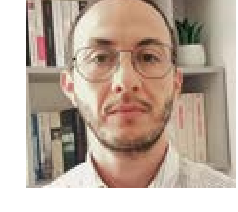
أحمد نظيف

صحفي وباحث تونسي. مهتم بالترجمة والعلوم الاجتماعية. مترجم في مجلة اليونسكو بباريس.



ناصر عدنان ثابت

محام وباحث قانوني، منسق فريق البحث والدراسات القانونية في منظمة القانون من أجل فلسطين.





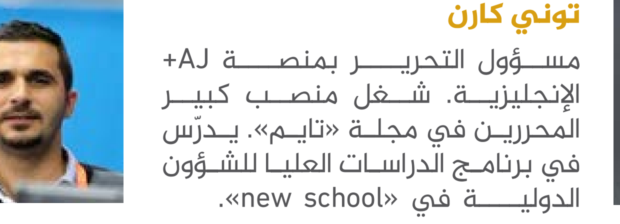
الشافعي أبتدون

صحفي وباحث صومالي.

محمد أحداد

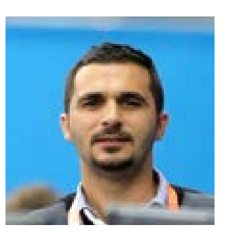
صحفي بمعهد الجزيرة للإعلام. باحث دكتوراه في العلوم السياسية. صدر له «يد في الماء.. ويد في النار» و«الصحراء.. الرواية الأخرى».





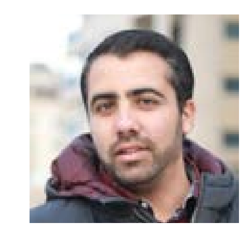
توني كارن

مسؤول التحرير بمنصة AJ+ الإنجليزية. شغل منصب كبير المحررين في مجلة «تايم». يدرّس في برنامج الدراسات العليا للشؤون الدولية في «new school».



همام كدر

صحفي بقنوات «بي إن سبورتس».



أحمد الأغا

صحفي وباحث إعلامي، حاصل على درجة الماجستير في الإعلام من جامعة القاهرة.

محمد زيدان

محرر وكاتب في معهد الجزيرة للإعلام.



هل هي لحظة وسائل الإعلام في الجنوب العالمي؟

في سنة 1992، بشّر المفكر الأمريكي فرانسيس فوكوياما بـ «نهاية التاريخ» وانتصار القيم الليبرالية وتشكيل نظام عالمي جديد خالٍ من «المقاومة» التي يمكن أن تواجه هذا «الدين الجديد».

عاشت الأفكار الليبرالية القادمة من الغرب أو من الشمال العالمي (مع كل الحذر العلمي والمنهجي الذي ينطوي عليه المفهوم) عصرها الذهبي في التسعينيات من القرن الماضي مأخوذة بمشهد سقوط جدار برلين وانهيار الاتحاد السوفياتي. وكان على دول الجنوب المشغولة بتصفية التركة الاستعمارية وبناء الدولة الحديثة أن تنساق وراء هذه الموجة لتجد نفسها تعيش استعمارا جديدا.

ستتطور الفكرة الليبرالية التي نظّر لها مفكرون غربيون لتصبح «رأسمالية» متغولة مسنودة بوسائل اقتصادية وعسكرية فتاكة، أما وسائل الإعلام أو غالبيتها على الأقل، فتحولت من دون أي مبالغة إلى تابع للنخب العسكرية والسياسية المهيمنة في الشمال.

هكذا نفهم جذور الانحياز الصارخ للرواية الإسرائيلية في حرب الإبادة الجماعية على فلسطين، رغم أن قتل المدنيين واستهداف الصحفيين وتحويل غزة إلى فضاء غير قابل للعيش، لم يكن أوضح كما هو اليوم. تشكل حرب الإبادة الجماعية مختبرا حقيقيا لفهم ثنائية الشمال والجنوب ضمن دراسات الإعلام والاتصال، ذلك أن التدفق غير المتكافئ للبيانات واحتكار المعلومات والتطور التكنولوجي، قد يفسر معضلة انبثاق نظام إعلامي جنوبي مطوق بآثار الاستعمار والاستبداد السياسي.

نشأت فكرة العدد من النقاش الذي أطلقناه قبل شهور في إسطنبول بشأن إعادة النظر في المرجعيات الإعلامية التي تحكمنا، وكان دافعنا الأساسي هو التماهي التام بين الدبابة الإسرائيلية والإعلام الغربي، وضرورة إيجاد نموذج محلي ومنفتح لوسائل الإعلام بالجنوب العالمي.

وضمن هذه الدينامية المستمرة، لا نعالج في هذا الملف موضوع الصحافة والجنوب العالمي من زاوية تنظيرية محضة، بل من منظور التفكير في بديل حقيقي ينطلق من صميم تجارب دول الجنوب، ومن اجتراح قضاياها المحلية غير خاضعة لرؤية الشركات الإعلامية العالمية. وينطلق الملف أيضا من فكرة تأثير الوعي بهذه الفجوة على الممارسات المهنية للصحفيين ودورهم في مجتمعاتهم المحلية.

في 1982، صعد محمد مختار امبو -صاحب فكرة لجنة ماكبرايد التي أغضبت الشمال العالمي- على منبر مؤتمر اليونسكو ليطلق صرخته الشهيرة: إذا كانت وسائل الإعلام الغربية تتمتع بالحرية في قول ما يحلو لها، فإن الآخرين يتمتعون بالحق في الحكم على ما تقوله»، ونحن في هذا الملف، نحاول أن نحكم على مرجعيات الإعلام الغربي ونخضعها لمجهر الفحص النقدي بحثا عن نظام إعلامي جنوبي جديد حر ومستقل.

مجلة الصحافة

مجلة الصحافة

العدد (35) I السنة التاسعة خريف 2024

مجلة فصلية تصدر عن
معهد الجزيرة للإعلام
شبكة الجزيرة الإعلامية

المشرف العام
إيمان العامري

رئيس التحرير
منتصر مرعي

هيئة التحرير
محمد أحداد
محمد خمايسة
محمد زيدان

تصميم
إدارة الإبداع في شبكة الجزيرة الإعلامية

مجلة الصحافة
Aljazeera Journalism Review

موقع الإنترنت:
http://institute.aljazeera.net/ar/ajr

تويتر:
@AJR_Arabic

فيسبوك:
www.facebook.com/aljazeerajournalismreview

بريد المجلة الإلكتروني:
ajreditor@aljazeera.net

تحديات تدفق البيانات غير المتكافئ على سرديات الجنوب

حسن عبيد

ساهمت الثورة الرقمية في تعميق الفجوة بين دول الجنوب والشمال، وبعيدا عن النظريات التي تفسر هذا التدفق غير المتكافئ بتطور الشمال واحتكاره للتكنولوجيا، يناقش المقال دور وسياسات الحدود الوطنية والمحلية لدول الجنوب في في التأثير على سرديات الجنوب.

يُعدّ الاستحواذ على البيانات واحتكارها من ميادين المنافسة بين الدول، ومن المؤشرات المهمة الدالة على الهيمنة والتفوق، ولربما نرى ذلك جليا في مجال الصناعات العسكرية والتكنولوجيا، أو في مجالات علمية مثل الطب؛ أي المجالات المرتبطة بالابتكار، ليظهر لدينا ما يمكن تسميته «احتكار الابتكار». ولا تكمن أهمية الاحتكار فقط في السعي إلى الهيمنة وحسب، ولكن للحفاظ على استمرارية الاعتماد على محتكري البيانات.

وليست سياسة الاحتكار هي الوحيدة التي نهجها الشمال العالمي في التعاطي مع البيانات، وإنما تنظيم تدفقها عبر الحدود، خصوصا في قضايا الإعلام والاتصال والثقافة والاقتصاد؛ فصحيح أن تدفق البيانات يتم في الاتجاهين على نحو غير مسبوق، إلا أنه لا تزال ثمة هيمنة لدول الشمال ليمتد تدفق البيانات إلى مسألة من يتحكم في الشبكات العالمية ووسائل الإعلام التابعة لها، التي تولد باستمرار التصورات العالمية الأحادية (Universalism) على حساب تصورات متعددة الثقافات.

التحكم بتدفق البيانات ليس مقتصرا فقط على قضايا الاستهلاك الإعلامي أو الاقتصادي أو الثقافي، إنما بشكل أعمق، هو حلقة من سلسلة من ممارسات الهيمنة، تبدأ من المنطلقات المعرفية، التي تحدد شكل تدفقات البيانات، وما ينتج عن هذا التفاعل بين الجانبين من سردية. يظهر ذلك جليا في قضايا الحروب والأزمات السياسية؛ فالحروب فرصة لإعادة تكريس الهيمنة



التحكم بتدفق البيانات ليس مقتصرا فقط على قضايا الاستهلاك الإعلامي أو الاقتصادي أو الثقافي، إنما هو حلقة من سلسلة من ممارسات الهيمنة، تبدأ من المنطلقات المعرفية، التي تحدد شكل تدفقات البيانات، وما ينتج عن هذا التفاعل بين الجانبين من سردية (شترستوك).

بشكلها الفاضح، وقد تجلى ذلك بوضوح بعد العملية العسكرية التي نفذتها حركة حماس في السابع من أكتوبر 2023، وما تبعها من حرب إبادة مارسها الاحتلال بحق الفلسطينيين في قطاع غزة ثم في لبنان، ولكن سبق ذلك إنشاء سردية اعتمدت على الانتقائية العالية في تدفقات البيانات التي انطلقت من تصورات معرفية في الأساس، لتشكل فيما بعد السردية وما ينتج عنها من سياسات، ضمن التسلسل التالي:

المنطلق المعرفي

↓

تدفق البيانات

↓

السردية

لكن في المقابل، لم تتأثر روايات الجنوب بسبب التدفقات الثقافية العابرة للحدود الوطنية غير المتوازنة بين الشمال والجنوب وحسب، وإنما بسبب عدد من العوامل الجنوبية الصرفة؛ إذ تجادل وتناقش هذه المقالة بأن تفوق تدفق البيانات من الشمال إلى الجنوب ليس سببه تطور الشمال في مجال الإعلام والاتصال واحتكار التكنولوجيا الرقمية وحسب، وإنما هو أيضا نتاج سياسات الحدود الوطنية والمحلية لدول الجنوب.

> ثمة هيمنة على تدفقات البيانات بهدف الهيمنة على السردية، ثم تكريس التسلسلات الهرمية في السياسة العالمية بوصفها ميراثا لفترة الاستعمار وما بعدها؛ إذ تمارس القوى (المهيمنة) الاستعمارية العنف المعرفي، وهو مفهوم ابتكرته غاياتري سبيفاك.

الرأسمالية والاستهلاك الإعلامي والعولمة

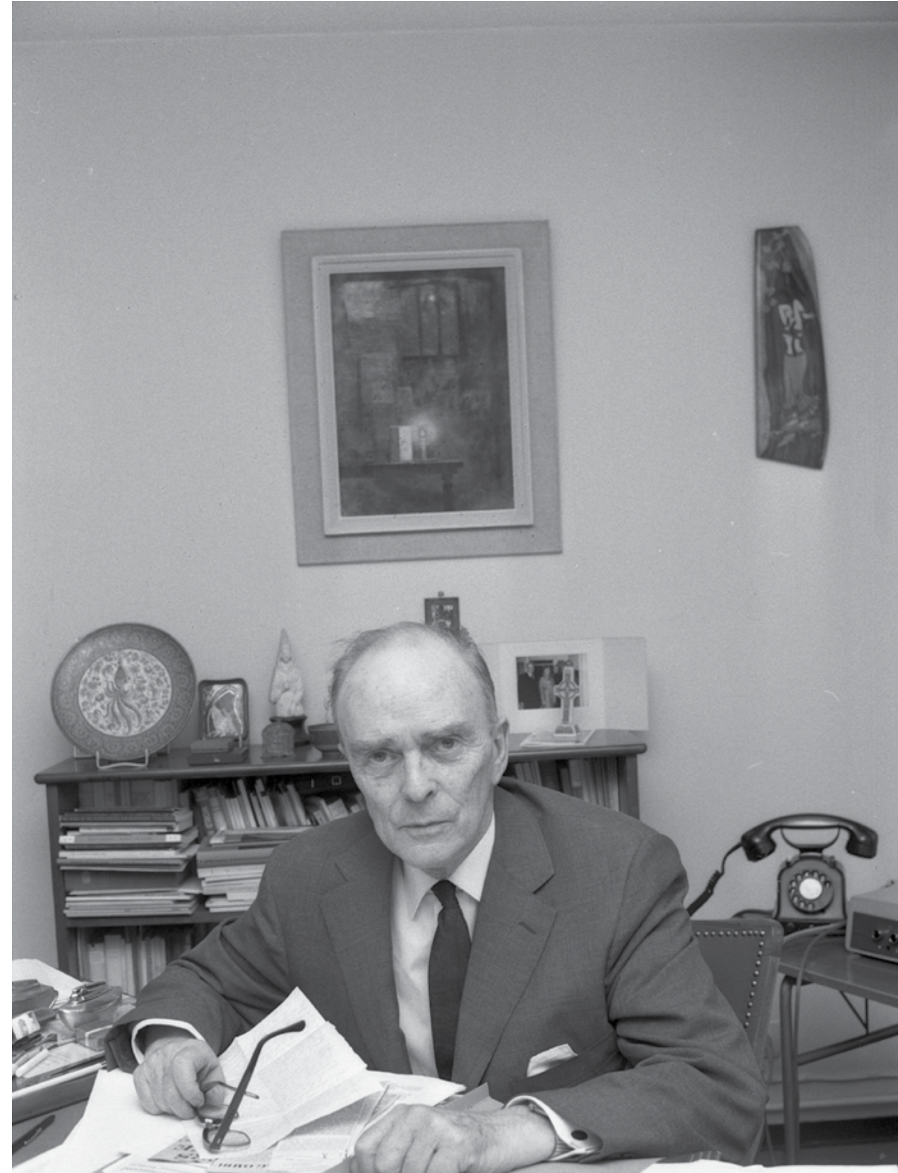
نشأ نظام المعلومات والاتصال بعد العام 1945 في سياق الاستعمار العالمي، وكان يسعى في المقام الأول إلى تسهيل الاتصال بين دول الاستعمار والمناطق المستعمرة البعيدة في آسيا وأفريقيا. والبنية الأساسية للمعلومات والاتصالات، آنذاك كما هي الحال الآن، رمت في المقام الأول إلى خدمة «احتياجات الإمبراطورية»(1).

فيما بعد علت الأصوات التي تدعو إلى اعتبار أن التدفقات الحرة للمعلومات مبدأ استراتيجي. ومن أهم الوثائق التي ناقشت ذلك تقرير لجنة ماكبرايد (Report McBride Com-mission's) التابعة لليونسكو، الذي صدر عام 1980، وحمل عنوان «أصوات عديدة وعالم واحد: نحو نظام عالمي جديد أكثر عدالة وكفاءة للمعلومات والاتصالات»(2). صاغ هذا التقرير وطوره مجموعة من المفكرين النقديين من الشمال والجنوب، بما في ذلك أولئك الذين ناقشوا الإمبريالية الثقافية، وقد حدد التقرير في مقدمته أهداف نظام عالمي جديد للمعلومات والاتصالات، منها: العدالة والإنصاف، والمعاملة بالمثل في تبادل المعلومات، وتقليل الاعتماد على تدفقات الاتصالات، وتقليل انتشار الرسائل والبيانات باتجاه واحد (من الشمال إلى الجنوب)، ليكون التدفق في البيانات والاتصال شاملا من الجانبين، وضمان حق «الدول النامية» في إنشاء أنظمة إعلام وطنية مستقلة وبعيدة عن احتكار الإعلام الرأسمالي العابر للحدود، والاعتماد على الذات والهوية الثقافية.

لكن هذه الدعوات الدولية لم تؤثر على هيمنة الشمال على تدفقات البيانات، وذلك من خلال أمرين: الأول، العولمة الثقافية في خدمة رأس المال؛ فالنهج الغربي للإعلام وتدفق البيانات ركز على نحو مركزي على وسائل الإعلام الرأسمالية التي تطورت عبر الزمن لغاية ما نراه اليوم؛ ذلك أن التطور التقني المتعلق بتدفق البيانات، ضاعف بصورة كبيرة الطفرة التكنولوجية المتسارعة، والهوس بالجماهير، والشركات العابرة للحدود، ومواقع الإنترنت الإخبارية والترفيهية(3) على حساب الثقافة المحلية، والقصص الشفوية المرتبطة بالمجتمعات المحلية، والفلكلور، والمبادرات ذات التمويل البسيط.

إن الإعلام الرأسمالي ذا الطبيعة المعولمة لا يراعي خصوصيات الحدود الوطنية لأنه لا يتعامل من خلال منطق الحدود أساسا؛ إذ تستثمر شركات الإعلام العالمية والوطنية بصورة كبيرة في اقتصاد الإعلام الدولي، وتجارة السلع الإعلامية وتوزيعها، وبيع الجماهير للمعلنين. لقد أدى ذلك إلى إعادة تشكيل الثقافات المحلية لصالح القيم أحادية الاتجاه والتعريف، وأصبحت الثقافة المحلية منفصلة عن مراسيها المحلية.

الأمر الثاني يتمثل في الهيمنة على تدفقات البيانات بهدف الهيمنة على السردية، ثم تكريس التسلسلات الهرمية في السياسة العالمية بوصفها ميراثا لفترة الاستعمار وما بعدها؛ إذ تمارس القوى (المهيمنة) الاستعمارية العنف المعرفي، وهو مفهوم ابتكرته غاياتري سبيفاك(4) باعتباره فعل القضاء على الطرق القائمة بين المجموعات المحلية؛ مثل تقاليدها وعاداتها، والمعرفة التي تبنتها بمحو التاريخ الأصلي للأرض وشعبها.



حدد تقرير لجنة ماكبرايد أهداف نظام عالمي جديد للمعلومات والاتصالات، منها: العدالة والإنصاف، والمعاملة بالمثل في تبادل المعلومات، وتقليل الاعتماد على تدفقات الاتصالات، وتقليل انتشار الرسائل والبيانات باتجاه واحد -من الشمال إلى الجنوب- (غيتي).

الهيمنة على تدفق البيانات تؤثر على الهيمنة على السرديات تجاه عدد من القضايا المتعلقة بالجنوب؛ فالقدرة على السرد، أو منع السرديات الأخرى من التشكل والظهور، مهمة جدا للثقافة والإمبريالية(5). في المقابل، إن جزءا كبيرا من وسائل الإعلام الغربية لا يستقي أخباره من قلب الحدث، ولا يسعى للتعرف إلى السرديات المحلية، بل يعتمد على أحكام جاهزة من كتابات المستشرِقين(6).

طورت الحداثة الأوروبية الأمريكية «منظورا معرفيا يمكن من خلاله صياغة المعنى وتوجيه الإنتاج الجديد للمعرفة»(7)، وهو قائم على تدفقات البيانات والإعلام والاتصالات في تحقيق الهيمنة، ويتخطى هذا المنظور الأخبار والأفلام والمسلسلات التلفزيونية والكتب. نستطيع أن نلحظ ذلك بعد السابع من أكتوبر عام 2023، عندما خُلِقت مرجعية للقضية الفلسطينية تبدأ من هذا التاريخ بتحميل الفلسطينيين المسؤولية وعدم التطرق لمأساتهم؛ فالعنف المستمر الذي يمارسه الاحتلال الإسرائيلي بحقهم يميل إلى البقاء غير مرئي للإعلام الغربي. كذلك تفشل المعاناة اليومية للفلسطينيين تحت الاحتلال الإسرائيلي في الظهور ما لم تؤطر بأنها ثوران مفاجئ، غير مرتبط بسياق الاحتلال، وسرعان ما سينتهي إذ تُعاد صياغته بسرعة ووصفه بأنه حدث عابر.

> **وعلى الرغم من محاولات إنشاء نظريات محلية إقليمية، فإنه لا يمكن لأي من الجنوب الجغرافي أن يدعي السيادة أو التحرر من النماذج والمعرفة الغربية في مشاريع بناء النظريات والمعارف الخاصة به.**

الجنوب وتوطين البيانات

من القضايا الشائكة التي تتعلق في تعامل الجنوب مع تدفق بيانات الشمال، هو القيام على توطينها بدلا من مقاومتها، وذلك يعود لعدة عوامل؛ أولها يتعلق بإزالة آثار الاستعمار من العقول الجنوبية التي لم تتجاوز المركزية الغربية. وكما يذكرنا موليفي أسانتي، فإن الجزء الأكبر مما كتبه الأفارقة والآسيويون والعلماء من أمريكا اللاتينية أُضيف إلى الأدبيات الأوروبية، وحتى انتقاد الجنوب

للشمال كان من منظور أوروبي؛ أي ما يحتاج إليه الجنوب هو طريقة لمنع اختفاء علماء الجنوب وتاريخه(8).

العامل الثاني، هو أنه لا يمكن اعتبار الجنوب العالمي متجانسًا، بل لديه مروحة واسعة من التنوع الثقافي. ومع ذلك، فإن إحدى السمات الشاملة والمتقاطعة للجنوب الجغرافي –ولا سيما في قضايا الإعلام وتدفق البيانات وما يترتب عليها من معارف- تكمن في التجذر بعمق في التقاليد الليبرالية. وعلى الرغم من محاولات إنشاء نظريات محلية إقليمية، فإنه لا يمكن لأي من الجنوب الجغرافي أن يدعي السيادة أو التحرر من النماذج والمعرفة الغربية في مشاريع بناء النظريات والمعارف الخاصة به(9)؛ فقد «»كان هناك ميل ضمني للتعامل مع الثقافات الغربية من منظور الطالب»، بينما يتعامل الأكاديميون الغربيون مع «الثقافات غير الغربية من منظور المعلم(10).

وهنا تقول مختصة الاتصال البروفيسورة التايوانية جورجيتا فانج، في كتابها «تفكيك الغربية عن أبحاث الاتصال»: «»قد يتحدث المرء عن دراسات الإعلام والاتصال في جميع أنحاء العالم، إلا أن المناقشة هي في الأساس مونولوج فكري مع الغرب السائد - مع نفسه»(11).

أما العامل الثالث فهو دور الدولة والنُّخَب، وقد أشار إلى ذلك أستاذ الاتصالات كولين بارك من خلال بحثه الذي كان بعنوان «إحياء البعد الإمبراطوري في الاتصالات الدولية»؛ إذ يرى أنه في اللحظة التي تُصوَّر فيها الحدود باعتبارها بوتقة تنصهر فيها الثقافات، إلا أنها في الوقت نفسه مكان جدلي يتميز بتناقضات اجتماعية عميقة الجذور لا يمكن تجاهلها، تجمع بين طياتها أنواعا أحدث من الإمبريالية الثقافية التي يسهلها تجنيد الدولة ونخبها من قبل الاستعمار(12).

> **يمثل الجنوب العالمي موقعا معرفيا وإطارا فكريا وتفسيريا يستند إلى نضالات الذين عانوا من العبودية والاستعمار والرأسمالية. إنه مساحة لتحقيق الذات بوصفها جزءا من مشروع معرفي يهدف إلى إعادة إضفاء الطابع الإنساني، وإعادة كتابة الهوية وتحريرها.**

في ظل ذلك، أثارت سبيفاك السؤال بشأن إمكانية معرفة رواية الشعوب التي خضعت للاستعمار والتي سُلب منها حق تمثيل نفسها، ولا سيما أن من يمثل وعي الشعوب (أو ما سمّته التابع) هم النخبة المتأثرة بالاستعمار.

علاوة على ذلك، تثير سبيفاك قضايا أساسية تتعلق بالقيود الأخرى التي تعوق القدرة على التعبير والسرد؛ مثل الحواجز اللغوية، والتحيزات الثقافية، وديناميكيات القوة المفروضة عبر الاستعمار والإمبريالية(13).

ويتمثل العامل الرابع في استهلاك الجنوب العالمي المتزايد للمنتجات الغربية العابرة للحدود، مثل منتجات الترفيه والتسلية، التي صنعت بحرفية تكنولوجية ورقمية عالية، وهذا لم يسهم في انتشارها فحسب، بل أسهم في هيمنة الأيديولوجيا الرأسمالية وتشكيل التصورات نحو عدد من القضايا وفق رؤية الشركات المنتجة.

إستراتيجيات جنوبية مقاومة

من المفهوم أن الجنوب يحتاج إلى توفير مجموعة من الظروف لكي يستعيد سرديته بالزخم الذي يؤدي إلى تشكل مركز معرفي مكافئ للمركزية الشمالية، ولكن ذلك لا يمنع من اتباع مجموعة من الإستراتيجيات التي تضعف من تأثير تدفقات بيانات الشمال، وأيضا خلق حيز لبيانات الجنوب العالمي وسردياته ومعارفه.

في هذا السياق، يمثل الجنوب العالمي موقعا معرفيا وإطارا فكريا وتفسيريا يستند إلى نضالات الذين عانوا من العبودية والاستعمار والرأسمالية. إنه مساحة لتحقيق الذات بوصفها جزءا من مشروع معرفي يهدف إلى إعادة إضفاء الطابع الإنساني، وإعادة كتابة الهوية وتحريرها. ومن ثم، يشير مفهوم الجنوب العالمي من الناحية المفاهيمية إلى مساحة غير جغرافية للمقاومة الفكرية إزاء التهميش والاستبعاد.

ولعل من الإستراتيجيات المهمة إنشاء السرديات الجنوبية؛ فبالنسبة لهومي بابا فإن



تثير سبيفاك قضايا أساسية تتعلق بالقيود الأخرى التي تعوق القدرة على التعبير والسرد؛ مثل الحواجز اللغوية، والتحيزات الثقافية، وديناميكيات القوة المفروضة عبر الاستعمار والإمبريالية (يوكرينفورم - شترستوك).

«الطبيعة الحقيقية للسرد» هي إثارة قضايا بشأن الاختلاف وعلاقات القوة والتناقضات، من منظور ثقافي وسياسي(14)؛ فالسردية لا تصور المعرفة وأشكال الحياة من مكان آخر فحسب، بل إنها تبني وتخترع وتنتج أيضًا أراضي متخيلة.

يشير الباحثان البرازيلي فرناندو ريسندي وجنوب الأفريقية مهيتا إيكاني، إلى أنه عندما يتحول الانتباه بعيدا عن النماذج القديمة للقوة ويفكر الجنوب في كيفية تجذر السرد وتدفقه بطرق مختلفة -من الجنوب إلى الجنوب، داخل اللغات وعبرها، في الترجمة أو من خلال اللغة العالمية-، يُنشأ نوع جديد من الثقافة العالمية التي لا تعتمد بالضرورة على الشمال(15).

وفرت ثورة الاتصالات الرقمية الحديثة فرصة ذهبية للجنوب العالمي، سواء في المنافسة في خلق التكافؤ في تدفق البيانات مع الشمال، أو في توحيد الهوية الجماعية للجنوب العالمي؛ فهناك طرق إبداعية عدة لتشكيل السرديات من خلال البيانات، وكذلك الفرص التي توفرها المنصات الرقمية للوصول والانتشار. قد يسمح ذلك بمساعدة الجنوب العالمي في إعادة التفاوض مرارا وتكرارا على موقعه في الهامش والمركز، ومن ثَمّ على موقعه المعرفي، مما يعيد إعادة تموقع السرد بين القوة والمعرفة. هذه الممارسات السردية تُسهم في تعطيل المجالات الخطابية والبصرية المهيمنة وتوليد طرق جديدة للمعرفة.

يكمن جوهر تأثير تدفقات البيانات في القوة والخلفية المعرفية الكامنة وراء هذه التدفقات، ودورها في خلق فضاءات هجينة داخل الحدود الوطنية تُقنع سكان الجنوب بأن العولمة ورومانسية التدفقات الثقافية العابرة للحدود الوطنية لن تؤثر على ثقافاتهم المحلية، في حين أن الأمر غير ذلك؛ فتدفق البيانات تقف خلفه الشركات متعددة الجنسيات الغربية والثقافات الجماهيرية القائمة على الاستهلاك، ولكن يمكن اعتبار التطورات الرقمية فرصة للجنوب العالمي (الجغرافي والمعرفي) لتشكيل سرديات مضادة لسرديات الهيمنة.

لعب الجنوب العالمي بوصفه موقعا معرفيا ومساحة غير جغرافية دورا مهما في مؤازرة القضية الفلسطينية، خصوصا بعد السابع من أكتوبر 2023؛ فقد أربك الجنوب الترتيبات السردية التي تكرست على مر عقود، مثل خطاب السلام، والمفاوضات، والعدالة الانتقالية، وأعاد نقاش القضية الفلسطينية ضمن مرجعية نكبة 1948 ووعد بلفور عام 1917، وهو ما أدى إلى تبني عدد من المؤسسات الدولية للسردية الفلسطينية، وكان ذروة نجاح الجنوبيين عندما أطاحوا بالاحتكارات السردية ذات المركزية الغربية الإمبريالية مثل «الإبادة الجماعية».



أربك الجنوب الترتيبات السردية التي تكرست على مر عقود، مثل خطاب السلام، والمفاوضات، والعدالة الانتقالية، وأعاد نقاش القضية الفلسطينية ضمن مرجعية نكبة 1948 ووعد بلفور عام 1917 (تصوير: كلوديا راديكا - غيتي).

المراجع

1) Last Moyo, The decolonial turn in Media Studies in Africa and the Global South. (Cham, Switzerland: Palgrave Macmillan, 2020), p.134.

2) McBride Commission, Many Voices One World: Towards a New More Just and More Efficient Information and Communication Order. (Paris: Unesco. 1980)

3) John D. H. Downing,Where We Should Go Next and Why We Probably Won't: An Entirely Idiosyncratic, Utopian, and Unashamedly Peppery Map for the Future. In Angharad N. Valdivia (Ed.), A Companion to Media Studies. (Malden: Wiley-Blackwell, 2003), p.500.

4) Gayatri Chakravorty Spivak, "Can the subaltern speak?", in: Peter H. Cain, Mark Harrison (Eds.), Imperialism: Critical concepts in historical studies. volume III. (Abingdon: Routledge, 2023).

5) Homi Bhabha, The Location of Culture, (London: Routledge, 1994).

6) إدوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة محمد عصفور (القاهرة: دار الأدب للنشر، 2022).

7) Walter Mignolo, Local Histories/Global Designs. Princeton, (NJ: Princeton University Press, 2000), p.18.

8) Molefi Kete Asante, "The Ideological Significance of Afrocentricity in Intercultural Communication". In Molefi Kete Asante, Yoshitaka Miike, and Jing Yin (Eds.), The Global Intercultural Communication Reader, (London and New York: Routledge, 2008), p.51.

9) Last Moyo, The decolonial turn in Media Studies in Africa and the Global South. (Cham, Switzerland: Palgrave Macmillan, 2020).

10) Molefi Kete Asante, Yoshitaka Miike, and Jing Yin, The Global Intercultural Communication Reader, (London and New York: Routledge, 2008), p.3.

11) Georgette Wang, De-Westernizing Communication Research: Altering Questions and Changing Frameworks.)London: Routledge, 2011), p.2.

12) Colin sparks, "Resurrecting the Imperial Dimension in International Communication". In C. C. Lee (Ed.), Internationalizing "International Communication", (Michigan: Michigan University Press, 2015), p.158.

13) Gayatri Chakravorty Spivak, "Can the subaltern speak?", in: Peter H. Cain, Mark Harrison (Eds.), Imperialism: Critical concepts in historical studies. volume III. (Abingdon: Routledge, 2023).

14) Homi Bhabha, Nation and narration, (London: Routledge, 1990), p.312.

15) Mehita Iqani and Fernando Resende, Media and the global south: Narrative territorialities, cross-cultural currents, (New Delhi: Routledge India, 2020), p.14.

الاستعمار الرقمي.. الجنوب العالمي أمام شاشات مغلقة

أحمد رضوان

بعد استقلال الدول المغاربية، كان المقاومون القدامى يرددون أن «الاستعمار خرج من الباب ليعود من النافذة»، وهاهو يعود بأشكال جديدة للهيمنة عبر نافذة الاستعمار الرقمي. تبرز هذه السيطرة في الاستحواذ على الشركات التكنولوجية والإعلامية الكبرى، بينما ما يزال الجنوب يبحث عن بديل.

«تسألني من أنا

أنا كل الناس الذين فكروا فيّ وخططوا لي وبنوني وجعلوني أركض

لذا فأنا بشر

أنا كل الأشياء التي أرادوا أن يكونوا عليها وربما لم يتمكنوا من أن يكونوا عليها؛

لذلك صنعوا طفلا عظيما

لعبة عجيبة لتمثيل تلك الأشياء» (1)

لم يتصور أحد أن قصة «أنا أغني الجسد الكهربائي» للكاتب «راي برادبري» التي نشرها عام 1969، متأملا الآلة التي تحاكي الحياة، ستصف بعد عقود جوهر العلاقة الجدلية بين الإنسان في الجنوب العالمي والعالم الافتراضي، حيث تختلط كل مشاعره وأفكاره وبياناته في وعاء أحلام وطموحات من اخترعوا مساحاته الافتراضية. هكذا تنال استعارة «برادبري» مصداقية في عالمنا، فلا تشبه الآلة المنصات الرقمية اليوم، بوصفها أدوات محايدة، ولكنها امتداد متقدم ومعقد للهيمنة.

قبل عشر سنوات، زار مارك زوكربيرغ قرية شانداوولي الهندية حاملا ما ظنه هديته لدول العالم النامي: تطبيق Free Basics الذي جرى تسويقه بوصفه نافذة خيرية تفتح أمام الملايين أبواب الشبكة العنكبوتية، ولكن ما بدا لمؤسس الفيسبوك مشروعا خيريا لم يكن بالنسبة للشعب الهندي سوى مشروع رقمي استعماري يُقيد حريته الرقمية(2) أطلق فيسبوك على التطبيق اسم «In-ternet.org»، ولكن بعد كشف مجموعة من الناشطين الهنود النقاب عن مخاطر التطبيق نظرا لمحدودية المواقع التي يمكن الولوج إليها، إضافة إلى هيمنة الفيسبوك الذي غير اسمه ليصبح «Free Basic». تصاعد النقاش بشأن التطبيق حتى وصل الاحتجاج عليه إلى الشوارع(3)، ما دفع هيئة تنظيم الاتصالات في الهند إلى حظر التطبيق بموجب قوانين حيادية الشبكة(4)، في خطوة للتأكيد على حق الناس في إنترنت غير مقيد.

أفـرزت هـذه المواجهـة لاحقـا نقاشـات عميقـة بشـأن مـن يتحكـم في حقـوق الوصـول إلـى البيانـات، وكيـف أصبحـت قـدرة المجـال الرقمـي هـي الحـدود الجديـدة للقـوة. وبينمـا يتحـدث البعـض عـن «حريـة الإعـلام»، يكشـف الواقـع أن السـيطرة على المعلومـات تتسـع كلمـا سـيطر الشـمال العالمـي على المؤسسـات الإعلاميـة الكبـرى والشـركات التكنولوجيـة.

في هـذا المشـهد غيـر المتكافئ، هـل يمكـن للجنـوب العالمـي أن يطالـب بنصيبـه في القـوة الرقميـة، أم إننـا أمـام شـكل جديـد مـن أشـكال الاسـتعمار حيـن يصبـح التحكـم في البيانـات أشـبه بسـطوة الأمـر الواقـع للإمبرياليـة الرقميـة؟

أمل الجنوب العالمـي أم فخ استعماري جديد؟

عندمـا ظهــرت أول منصــة تواصـل اجتماعـي الفيسـبوك 2004 (5)، رُحّـب بهـا بوصفهـا ميدانـا واعـدا لحريـة التعبيـر في العالـم ومسـاحة تفاعليـة يمكـن للأصـوات فيهـا أن تتجـاوز الحـدود. عامـا بعـد آخـر، ومـع كل ظهـور جديـد لمنصـة تواصـل اجتماعـي، يجـري تقديـم الوعـد المغـري لمسـتخدميها بسـلطة رقميـة مشـتركة، حيـث تتقـارب قصـص شـعوب العالـم وتجاربهـم، ونشـهد مسـارات جديـدة لمفهـوم التواصـل الاجتماعـي. كل هـذا التحـول كان بارقـة أمـل بالنسـبة لشـعوب الجنـوب العالمـي، فثمـة خيـارات جديـدة أمامهـم تكسـر سـلطة الإعلام التقليـدي واحتـكاره لسـردياتهم.

عـاش الجنـوب العالمـي تجـارب مدهشـة كان لمنصـات التواصـل الاجتماعـي دور مهـم مـن خلال توظيفهـا أداةَ حشـد وإخبـار في الاحتجـاج، كمـا حـدث في ثـورات الربيـع العربـي والاحتجاجـات الشـعبية في أمريـكا اللاتينيـة وأفريقيـا وآسـيا، إلا أن هـذا الأمـل سـرعان مـا تلاشـى حيـن أصبحـت هـذه المنصـات جـزءا مـن منظومـة تمتلكهـا إمبراطوريـات غيـر مرئيـة لا تسـمع أصـوات الجنـوب العالمـي إلا في قضايا محـددة وتحـت رحمـة الخوارزميات التـي تحلـل وتتنبـأ بسـلوك المسـتخدمين من دون أي مساءلة.



حظرت هيئة تنظيم الاتصالات في الهند تطبيق Free Basics بموجب قوانين حيادية الشبكة، في خطوة للتأكيد على حق الناس في إنترنت غير مقيد (دانش صديقي - رويترز).

قبل عشر سنوات، زار مارك زوكربيرغ قرية شانداوولي الهندية حاملا ما ظنه هديته لدول العالم النامي: تطبيق Free Basics الذي جرى تسويقه بوصفه نافذة خيرية تفتح أمام الملايين أبواب الشبكة العنكبوتية، ولكن ما بدا لمؤسس الفيسبوك مشروعا خيريا لم يكن بالنسبة للشعب الهندي سوى مشروع رقمي استعماري يُقيد حريته الرقمية.

«تريد وكالات التجسس الأمريكية قراءة مدوناتك، وتتبع تحديثاتك على تويتر، وحتى التحقق من مراجعات كتبك على أمازون.. هذا جزء من حركة أوسع نطاقا داخل أجهزة التجسس لتحسين استخدام المعلومات الاستخبارية مفتوحة المصدر».(6). هكذا عنونت مجلة WIRED الأمريكية كشفها الحصري في عام 2009 عن استثمار شركة In-Q-Tel التابعة لوكالة الاستخبارات الأمريكية في شركة Visible Technologies المتخصصة في مجال الرصد الاجتماعي عبر الإنترنت.

بحسب لويس شيبرد، وهو ضابط كبير سابق في مجال التكنولوجيا بوكالة استخبارات الدفاع، تعتمد وكالة الاستخبارات الأمريكية على الشركات التكنولوجية لمواكبة المشهد المتطور بسرعة في منصات التواصل الاجتماعي. وكثيرا ما يكافح ضباط الاستخبارات لتتبع الاتجاهات المتغيرة باستمرار على هذه المنصات في ظل التغير المتلاحق لتفضيلات مستخدمي الإنترنت الدوليين بشأن مواقعهم/ منصاتهم ا لمفضلة .

يشير «شيبرد» إلى أنه مع وجود أكثر من 70% من مستخدمي فيسبوك خارج الولايات المتحدة وأكثر من 200 منصة تدوين غير ناطقة بالإنجليزية وغير أمريكية تشبه تويتر، فسيكون من الإهمال -حسب شيبرد- من جانب مجتمع الاستخبارات تجاهل هذا التدفق الهائل من المعلومات العالمية في وقتها الحقيقي.(7)

وعلى مدى العقد الماضي، أقامت شركة In-Q-Tel عددا من الاستثمارات العامة في الشركات المتخصصة في مسح مجموعات كبيرة من البيانات عبر الإنترنت، وضمت الاستثمارات 38 شركة لم يُكشَف عنها سابقا تتلقى تمويلا من رأس المال الاستثماري لوكالة الاستخبارات الأمريكية، وتُطور معظم هذه الشركات أدوات تنقيب في منصات التواصل الاجتماعي. كذلك فإن الشركات الأخرى المدعومة من In-Q-Tel تتبنى الآن هذه الممارسة علَنا.(8)

تتطور هذه المنصات الرقمية، وسيتبع ذلك تغيّر بنيتها الوظيفية أيضا، فما عرفه الجنوب العالمي ذات يوم أنه فضاء بلا قيود، أصبح إمبراطورية شاسعة لا يحكمها التبادل العادل للأفكار والأصوات. في هذا السياق، نحن لسنا أمام عالم رقمي متساو، وإنما أمام نمط جديد من أنماط الاستعمار تُستغل فيه المساحات الرقمية لتعزيز الذهنية الاستعمارية بتوسيع الفجوة بين الشمال والجنوب العالميين. وعليه، يجب استكشاف آثار القوة الرقمية؛ إذ إننا نُشحَذ بمعاني حرية التعبير وحقوق الإنسان، ولكن نادرا ما ننالها.

هكذا يتجلى الاستعمار الرقمي بهيمنة شركات التكنولوجيا الأمريكية على البرمجيات والأجهزة والبنية الأساسية للإنترنت، ولعل هذا الشكل الحديث من الاستعمار على الجنوب العالمي، بقيادة شركات مثل غوغل وأمازون، يحد من السيادة الرقمية ويعزز التفاوت العالمي.(9)

الخوارزميات في خدمة القمع الرقمي

أحيت حرب الإبادة الإسرائيلية المتواصلة على الشعب الفلسطيني في قطاع غزة النقاش بشأن إسكات الأصوات المتضامنة مع القضية الفلسطينية على منصات التواصل الاجتماعي، وتتعرض هذه الأصوات للقمع الرقمي مع كل نقد لإسرائيل، خصوصا في دول الجنوب العالمي.

وأصبحت السردية الفلسطينية تتسلل بين خوارزميات الفضاء الرقمي بطرائق التفافية وتعبيرية مختلفة، واعتاد مواطنو الجنوب العالمي على الكتابة من دون نقاط، واستخدام رموز وتعبيرات



بالنسبة لشعوب الجنوب العالمي، خلق ظهور منصات جديدة الشعور بأن ثمة خيارات أمامهم تكسر سلطة الإعلام التقليدي واحتكاره لسردياتهم (جون مور - غيتي).

مختلفة بوصفها صياغات مشفرة أمام تصيد الخوارزميات.

في ديسمبر/ كانون الأول 2024، أكدت منظمة «هيومن رايتس ووتش» في تقرير نشرته أن الرقابة على المحتوى المتعلق بفلسطين على إنستغرام وفيسبوك تشكل رقابة منهجية وعالمية. شركة ميتا، الشركة الأم المالكة لفيسبوك وإنستغرام، لديها سجل موثق من حملات القمع واسعة النطاق للمحتوى المتعلق بفلسطين(10).

في الوقت الذي كانت تتسع فيه الاحتجاجات على القوانين الزراعية الجائرة في الهند، فبراير/ شباط 2024، وجد المحتجون والمتضامنون أنفسهم محاصرين أيضا من منصات التواصل الاجتماعي؛ إذ جرى تقييد الوصول إلى الأخبار المتعلقة باحتجاجاتهم، ولم يكن ذلك مجرد خطأ تقني وإنما سياسة قمع رقمي ممنهجة. لاحقا، اعترفت منصة إكس (تويتر سابقا) بحذفها للحسابات والمنشورات المتعلقة باحتجاجات المزارعين في الهند، وفي توضيحها، أفادت أن الحسابات والمنشورات حُجبت في الهند وحدها «امتثالا لأوامر» من الحكومة الهندية(11).

ماكبرايد.. تلاشي طموح العدالة الإعلامية

في عام 1977، عقدت منظمة اليونسكو اجتماعا على مستوى اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الإعلام، بهدف التحقق من أوجه عدم المساواة في تدفقات الاتصال والبنية الأساسية للإعلام أحادية الاتجاه التي أدانها مندوبو العالم الثالث. قررت المنظمة تشكيل لجنة لدراسة مشكلات الإعلام والتدفق غير العادل للاتصالات مكونة من ممثلي 15 دولة وبرئاسة شون ماكبرايد، وهو سياسي وصحفي ومناضل، شغل منصب وزير الخارجية الإيرلندي، ومن مؤسسي منظمة العفو الدولية.

وفي 1980، قدمت اللجنة تقريرها النهائي بعنوان «أصوات عديدة وعالم واحد: نحو نظام عالمي جديد وأكثر عدالة وكفاءة للمعلومات والاتصالات» (اللجنة

الدولية لدراسة مشكلات الاتصال 1980)، مرفِقةً أكثر من 80 توصية تتعلق بتوسيع الحرية المعلوماتية، وإنشاء نظام إعلامي عالمي متوازن وفعال يعتمد على الإمكانات العالمية في البحث والتدريب. حذَّر التقرير من التدفق غير العادل للمعلومات الذي من شأنه التمهيد لسيطرة القوى الكبرى على المجال الإعلامي وصهر الثقافات المحلية لشعوب العالم واستبدال ثقافة استهلاكية مهيمنة بها، ما يهدد حرية قطاع الإعلام والاتصال العالمي وديمقراطيته. وأشار التقرير إلى أن الاتصالات العالمية بين دول الجنوب العالمي شبه معدومة(12). ورغم الموافقة بالإجماع على تقرير اللجنة الذي قُدم في المؤتمر العام الحادي والعشرين لليونسكو في بلغراد، فإن المنظمة الدولية قررت لاحقا حل لجنة «ماكبرايد» بعد هجوم الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وإدانتهما لما ورد في التقرير، واعتبار ما ذكره التقرير هجوما على «حرية الصحافة»، وهو ما دفع المنظمة الدولية إلى إخلاء مسؤوليتها عما ورد في التقرير(13) منذ ذلك الحين، يدفع العالم ثمن التراجع أمام هيمنة القوى الاستعمارية على قطاع الإعلام والاتصال وصولا إلى هيمنة الولايات المتحدة على قطاع التكنولوجيا والمنصات الرقمية.

عاش الجنوب العالمي تجارب مدهشة كان لمنصات التواصل الاجتماعي دور مهم من خلال توظيفها أداةَ حشد وإخبار في الاحتجاج، كما حدث في ثورات الربيع العربي والاحتجاجات الشعبية في أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا، إلا أن هذا الأمل سرعان ما تلاشى حين أصبحت هذه المنصات جزءا من منظومة تمتلكها إمبراطوريات غير مرئية.



تفضح التفاوتات في الأجور التسلسل الهرمي العالمي الدائم الذي أنشأته القوى الاستعمارية في مقابل الظروف المرهقة والمخاطر التي يواجهها عمال المناجم في أمريكا اللاتينية (إنريكي ماركاريان - رويترز).

تكنولوجيا على أكتاف الجنوب

لا يتوقف الاستعمار الرقمي عند عمليات استخراج البيانات أو مراقبتها ولا عند قمع أصوات الجنوب العالمي، بل يمتد إلى أبعد من ذلك من خلال الاستغلال المستمر لموارد الجنوب العالمي؛ إذ يجري التعامل مع الجنوب العالمي بوصفه موردا للعمالة الرخيصة والمواد الخام الأساسية لدعم القوى التكنولوجية الأكثر ثراءً.

ولا يوجد مكان أكثر وضوحا من جمهورية الكونغو الديمقراطية، التي تزود العالم بأكثر من 70٪ من معدن الكوبالت، وهو عنصر أساسي لا غنى عنه لإنتاج البطاريات للسيارات والهواتف الذكية وأجهزة الحاسوب. وخلف سلسلة التوريد هذه تكمن حقيقة أكثر بشاعة تتعلق بعمالة الأطفال؛ إذ تقاضي 14 عائلة كونغولية الشركات الكبرى Apple وTesla وAlpha-bet وDell و Microsoftوتتهمها بالاستغلال الوحشي لعمالة الأطفال والتواطؤ في وفاتهم بعد أن أجبروا على العمل في مناجم الكوبالت(14).

يروي الليثيوم أيضا قصة مماثلة؛ فهو مكون حيوي آخر للتكنولوجيا الحديثة، وتُعَدّ دول مثل تشيلي والأرجنتين وبوليفيا موطنا لبعض أكبر احتياطيات الليثيوم في العالم، ومع ذلك فإن أجور العمال الذين يعملون في هذه المناجم تظل جزءا ضئيلا مما يكسبه نظراؤهم في بلدان الشمال العالمي.

في تشيلي، يتقاضى عمال المناجم ما بين 1430 دولارا و3000 دولار شهريا، بينما تتراوح الرواتب في الأرجنتين بين 300 دولار و1800 دولار. في عام 2016، حددت بوليفيا الحد الأدنى للأجور الشهرية لعمال المناجم عند 250 دولارا فقط! بينما الحال ليس كذلك بالنسبة لعمال المناجم في أستراليا، وهي دولة تمتلك أيضا احتياطيات كبيرة من الليثيوم؛ إذ يكسب عمال المناجم فيها ما يصل إلى 9000 دولار شهريا، ويصل دخل بعضهم حتى 200 ألف دولار سنويا. تفضح هذه التفاوتات في الأجور التسلسل الهرمي العالمي الدائم الذي أنشأته القوى الاستعمارية في مقابل الظروف المرهقة والمخاطر التي يواجهها عمال المناجم في أمريكا اللاتينية.

> **أصبح الجنوب العالمي أرضا خصبة لشركات التكنولوجيا العملاقة التي تسعى إلى العمالة الرخيصة في المجال الرقمي. تقدم البلدان في مختلف أنحاء الجنوب قوى عاملة منخفضة التكلفة لشرح البيانات في مجال الذكاء الاصطناعي، وعمليات مراكز الاتصال، وإدارة المحتوى لمنصات مثل فيسبوك.**

أصبح الجنوب العالمي أرضا خصبة لشركات التكنولوجيا العملاقة التي تسعى إلى العمالة الرخيصة في المجال الرقمي. تقدم البلدان في مختلف أنحاء الجنوب قوى عاملة منخفضة التكلفة لشرح البيانات في مجال الذكاء الاصطناعي، وعمليات مراكز الاتصال، وإدارة المحتوى لمنصات مثل فيسبوك. وفي هذه المغسلة الرقمية، يُكلف المشرفون على المحتوى بتنظيف منصات التواصل الاجتماعي من محتواها الأكثر ضررا؛ مثل مقاطع العنف والجرائم الدموية، والمواد الجنسية الصريحة، ما يترك العديد منهم مصابين بندوب عاطفية ونفسية، وقد لا يكسب المشرف على المحتوى في الهند، حتى بعد حصوله على زيادة في الراتب، أكثر من 3500 دولار سنويا -وهو تحسن عن المتوسط السابق البالغ 1400 دولار سنويا. يعكس استخراج المعادن الخام، والاستغلال المستمر لموارد الجنوب العالمي، ومعاملة العنصر البشري بوصفه موردا رخيصا، أشد معاني الاستغلال خدمةً لرأس مال الشمال العالمي(15).

هل يتحرر الجنوب من قبضة الشمال؟

رغم الهيمنة الرقمية التي تفرض نفسها، فلا يزال هناك أمل في قدرة الجنوب العالمي على مقاومة هذا الاستعمار الجديد، وبدأت العديد من الشركات في مجال التكنولوجيا الإعلامية بتطوير منصات تعتمد على التقنيات الحديثة لخدمة سرديات الجنوب؛ فتجربة مقاومة الرقابة الرقمية



تتعرض الأصوات المتضامنة مع القضية الفلسطينية على منصات التواصل الاجتماعي للقمع الرقمي مع كل نقد لإسرائيل، خصوصا في دول الجنوب العالمي (شترستوك).

في دولة مثل الصين، وتطبيق TikTok رغم ما يحيط به من جدل ومخاوف، تبين لنا أنه يمكن بناء فضاء رقمي مستقل، إذا ما توفرت الإرادة السياسية والقدرة التكنولوجية، وكذلك تطبيق wechat الصيني(16) الذي أصبح أكبر تطبيق جوال مستقل في العالم في عام 2018 مع أكثر من مليار مستخدم نشط شهريا(17).

أما في أفريقيا، فبدأت بعض الدول مثل نيجيريا وغانا وكينيا والسنغال في إنشاء منصات إعلامية رقمية محلية مثل Pulse Africa. تعكس هذه التطبيقات(18) قدرة دول الجنوب على تقديم نماذج ناجحة اعتمادا على اهتمامات شعوبها وأولوياتهم بعيدا عن السيطرة الغربية.

هكذا يصبح الجنوب العالمي مرة أخرى محاصرا، ولكن هذه المرة خلف شاشات وأنظمة وفي فضاء يُفترض أنه حر ولكنه في السياق الجنوبي متروس بالحواجز. تختنق القصص والحقائق والثقافات في عالم رقمي لا تتجاوز فيه كوننا مستخدِمين ومُستخدَمين بجاذبية كل هذه المنصات التي تحكم حياتنا اليومية. ورغم متعة تجريب هذه المنصات، يظل شعور السيطرة على أفكارنا وثقافتنا وهويتنا من قوى لا نراها، يرسم حدودنا فيها. نحن نعلم هذه الحقيقة: أننا ما زلنا نصرخ في فضاء لم يكن يوما ملكا لنا.

المراجع

1) Bradbury, R. (1969). I sing the body electric! Stories. Page 160.

2) Bhatia, R. (2016, May 12). The inside story of Facebook's biggest setback. The Guardian. Retrieved September 28, 2024, from https://www.theguardian.com/technology/2016/may/12/facebook-free-basics-india-zuckerberg

3) Rai, S. (2016, January 9). In India, fierce opposition builds against Facebook's free basics. Forbes. https://www.forbes.com/sites/saritharai/2016/01/04/in-india-fierce-opposition-builds-against-facebooks-free-basics/

4) Jazeera, A. (2016, February 9). India blocks Facebook's Free Basics App. Al Jazeera. Retrieved September 28, 2024, from https://www.aljazeera.com/economy/2016/2/9/india-blocks-facebooks-free-basics-app

5) Meta. (2024). Company info. About.meta.com; Meta. Retrieved September 28, 2024, from https://about.meta.com/company-info/

6) Shachtman, N. (2009, October 19). EXCLUSIVE: U.S. spies buy stake in firm that monitors blogs, tweets. WIRED. Retrieved September 28, 2024, from https://www.wired.com/2009/10/exclusive-us-spies-buy-stake-in-twitter-blog-monitoring-firm/

7) Ibid

8) Fang, L., & Fang, L. (2016, April, 14). The CIA is investing in firms that mine your tweets and Instagram photos. The Intercept. Retrieved September 26, 2024, from https://theintercept.com/2016/04/14/in-undisclosed-cia-investments-social-media-mining-looms-large/#:~:text=Photos%20%2D%20The%20Intercept-,The%20CIA%20Is%20Investing%20in%20Firms%20That%20Mine%20Your%20Tweets,tools%20to%20mine%20social%20media.

9) Kwet, M. (2019). Digital colonialism: US empire and the new imperialism in the Global South. Race & Class, 60(4), 3-26. Retrieved September 28, 2024, from https://doi.org/10.1177/0306396818823172

10) Younes, R. (2023 December 21). Meta's broken promises. In Human Rights Watch. Retrieved September 24, 2024, from https://www.hrw.org/report/2023/12/21/metas-broken-promises/systemic-censorship-palestine-content-instagram-and

11) Henry, B. N. (2024, February 22). India farmers' protest: X admits to taking down posts and accounts. Retrieved September 24, 2024, https://www.bbc.com/news/world-asia-india-68366859

12) WACC | The MacBride Report legacy and media democracy today. (n.d.). https://waccglobal.org/the-macbride-report-legacy-and-media-democracy-today/

13) Wikipedia contributors. MacBride report. Wikipedia. Retrieved September 21, 2024, from https://en.wikipedia.org/wiki/MacBride_report

14) (2019, December 17). Tesla, Apple among firms accused of aiding child labor in Congo. Arab News. Retrieved September 29, 2024, from https://www.arabnews.com/node/1600156/amp

15) Transnational Institute. (2021, March 04). Digital colonialism: The evolution of US empire - Longreads. Longreads. Retrieved September 22, 2024, https://longreads.tni.org/digital-colonialism-the-evolution-of-us-empire

16) https://www.wechat.com/

17) https://en.wikipedia.org/wiki/WeChat

18) https://pulse.africa/

الجنوب العالمي.. مناجم بوليفيا والإعلام البديــل!

خلدون شامي

هل أسست إذاعات المناجم في بوليفيا لتوجه جديد في دراسات الاتصال الواعية بتحديات الجنوب العالمي أم كانت مجرد حركة اجتماعية قاومت الاستبداد والحكم العسكري؟ وكيف يمكن قراءة تطور إذاعات المناجم على ضوء جدلية الشمال والجنوب؟

على مسرح راديو (1)-Vanguardia جدارية تصوِّر هجوم طائرات سلاح الجو على مركز التعدين في مدينة Colquiri عام 1967. عبر الأثير: دعوات لاجتماع ربات البيوت، ورسائل العشاق لأحبتهم، وتهنئة بالولادات الجديدة. «زوجي يشرب كثيرا ويضربني.. وجاري أخذ دجاجاتي» -الناس هنا تفضل اللجوء إلى ميكروفون الراديو لحل مشكلاتها عوضا عن زيارة مخفر الشرطة-(2). طلب لسماع موسيقى Hirpas-tay وشكوى بشأن انتهاكات مركز التعدين المملوك للدولة. ثم يعلن المذيع عن عرض لمسرح Horizontes الأناركي(3) من فوق منصة شاحنة، بينما يضاء المشهد التمثيلي بمصابيح العمال(4).

دُمجت إذاعة عمال المناجم في الحياة اليومية وعلى نحو تشاركي مع الحركة الاجتماعية، وكانت قرى التعدين الفقيرة تتلقى البريد من خلال الراديو، الذي يُقرأ عدة مرات خلال اليوم. في أوقات السلم الأهلي، نظمت الإذاعات حملات من أجل ظروف عمل أفضل بالإضافة إلى التثقيف. وخلال حكم الجنرالات، صمد راديو المناجم في وجه هجمات الجيش، ما أسفر عن خسائر في الأرواح والمعدات. مع استيلاء العسكر على المؤسسات الصحفية في لاباز العاصمة والمدن الرئيسة، ظلت إذاعات عمال المناجم المصدر المتاح للمعلومات، حتى أصبحت بديلا عن خدمات الهاتف والبريد. وصل عددها في سبعينيات القرن الماضي إلى 25 محطة إذاعية، حين كانت نقابات عمال المناجم البوليفيين من أكثر النقابات تأثيرا في القارة اللاتينية (5). ولكن هذه الأصوات الجنوبية لم تحظ بالاهتمام البحثي المتوقع(6)، سواء بوصفها مذهبا إعلاميا أو حركة اجتماعية أضحت لاعبا رئيسا في المشهد البوليفي(7)، ربما لكونها مكونا شعبيا محليا، ومن غير أوبة "للشمال" في إطار وصاية حكومية، دولية أو كنسية كما في حالة راديو (8) RADIO PIO DOCE، أو دعم من المنظمات غير الحكومية(9)،

وهو ما يجعل منها حالة دراسية وازنة لخصائص إعلام الجنوب.

هذه الأصوات الجنوبية لم تحظ بالاهتمام البحثي المتوقع، سواء بوصفها مذهبا إعلاميا أو حركة اجتماعية أضحت لاعبا رئيسا في المشهد البوليفي، ربما لكونها مكونا شعبيا محليا، من غير وصاية جهة حكومية أو دولية أو كنسية أو دعم من المنظمات غير الحكومية.

«الجنوب العالمي» والإعلام الجنوبي»

عمليا، اشتبكت موجة الإعلام الجنوبي على نحو وازن وعضوي مع حراك مجتمع مهمش بلا صوت، ومع مقاومة العمال البوليفيين للاستبداد، وذلك قبل ظهور مصطلح «الجنوب العالمي «Global South بعقدين من الزمن. سيظهر المصطلح في مقالة «بعد فيتنام، ماذا؟» بشأن ما سمّاه الكاتب اليساري الأمريكي كارل أوغلسبي «تاريخ هيمنة دول الشمال على الجنوب العالمي»(10) التي نشرتها Com- monweal نهاية الستينيات(11)، فيما بدا استكمالا لرؤية أنطونيو غرامشي في مقالته «القضية الجنوبية The Southern Ques- tion» عام 1926(12)، التي تحلل تبعية الجنوب الإيطالي لشماله الرأسمالي. ويذهب غرامشي بعيدا فيما يصفه استعمارا داخليا لجنوب إيطاليا. يستند أوغلسبي في شرح مصطلح الجنوب العالمي إلى تفكيك ماركسي حين أسست الدول الاستعمارية نظاما عالميا مهيمنا، مستغلا ثروات الشعوب الجنوبية من خلال حكم إمبراطوري خلق انقساما طبقيا عالميا حادا(13). التفكيك الذي يلتقي حتميا مع لينين (14) في أن «الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية»(15)، ومع هوبسون



ظلت إذاعات عمال المناجم المصدر المتاح للمعلومات، حتى أصبحت بديلا عن خدمات الهاتف والبريد. ووصل عددها إلى 52 محطة إذاعية في سبعينيات القرن الماضي (شترستوك).

في تحليله المبكر لمقدمات الإمبريالية(16).

لاحقا، ومع انهيار تجربة حكم الأحزاب الشيوعية، سيحل مصطلح «الجنوب العالمي» بديلا عن الدول النامية، مقابل مصطلح «دول الشمال»، الذي يعد متماسكا بالنظر إلى المشتركات البنيوية والمعرفية التي تجمع فضاءاته إضافة إلى التاريخ الكولونيالي الحديث، ولكن خلافا للتماسك النسبي لملامح الإعلام الجنوبي، وفي مقدمتها المحلية والعلاقة العضوية بالحركة الاجتماعية، فإن «الجنوب العالمي» ظل مصطلحا غير متماسك في السياقين الجغرافي والبنيوي، وفي حالات أكثر إشكالية، وقع في تحالفات غير متسقة مع خصائص جنوبية معرفية ارتبطت بدراسات التابعين Subaltern Studies ونظرية المركز والأطراف، أو بالموقف من الهيمنة والتفوق العرقي والطبقي، كما في حالة الهند مثلا. يُضاف إلى ذلك تأخر حضور المصطلح، مع تراجع مداولات اليسار في بعض البيئات «الجنوبية» وفي وسائل الإعلام، كما هو الحال في منطقة الشرق الأوسط، وفُضّلت عليه مصطلحات «العالم العربي والإسلامي»، ويقابله «الغرب».

”

في أوقات السلم الأهلي، نظمت الإذاعات حملات من أجل ظروف عمل أفضل بالإضافة إلى التثقيف. وخلال حكم الجنرالات، صمد راديو المناجم في وجه هجمات الجيش، ما أسفر عن خسائر في الأرواح والمعدات.



إذاعة عمال المناجم: صوت للهامش وضد الهيمنة

في مناطق التعدين البوليفية، تعد ظروف العمل غير ممتعة وبالغة الخطورة، على أرض قاسية ورمادية، تهيمن عليها العواصف الترابية الباردة، هنا يموت عمال المناجم بالسُّحار (تسمم السيليكا الرئوي) قبل بلوغ سن الأربعين. تلازم عامل المنجم أزمة تنفس وصوت مختنق، ستنتقل من كونها سعالا مزمنا إلى أزمة أصوات بنيوية في قرى التعدين المنعزلة، الواقعة خارج حسابات السلطة.

في العام 1949، ووسط موجة قمع شديدة من السلطات، اشترى العمال معدات بث إذاعي، ودربوا فريقا من قراهم، وأطلقوا أول راديو في Catavi

لم تكن تجربة راديو عمال المناجم مشروعا تنمويا أو برنامجا للمنظمات غير الحكومية، بل كانت حراكا اجتماعيا مولته وأدارته المجتمعات المحلية ذاتيا وعلى نحو مباشر (تصوير: تشارلز فينو جاكوبس - غيتي).

(17)، ومولت الإذاعة بأجر يوم واحد من الشهر يقدمها العمال وربات البيوت طوعيا. لم يسمح للتجربة بالانتشار داخل أهم قرى المناجم إلا بعد وصول الحركة الوطنية للسلطة عام 1953، وتأميم صناعة التعدين. بدأت محطات الراديو بمعدات بث بسيطة، وبنى بعضها مسارح مرافقة، حتى تتمكن من بث اجتماعات النقابة على الهواء مباشرة، ليصبح راديو عمال المناجم صوتا لمجتمع مهمش ونمطا مغايرا وظيفيا ووجهة نظر متعارضة مع شركات الإعلام الكبرى منتبها للمقدمات الثقافية المتنوعة بين قرى التعدين ومجتمعات المزارعين المحيطة؛ فكانت البرامج الإذاعية والتفاعل باللغتين السائدتين Quechua و Aymara، ما حقق استدامة اجتماعية (18). بعد مذبحة عمال المناجم في Catavi، سترفض نقابات المناجم التعاون مع الحكومة العسكرية، وستكون إذاعاتهم في مقدمة مواجهة مباشرة مع العسكرتاريا، التي كانت تكافح من أجل بقاء الأوليغارشية (-ros (19 (ca محتفظة بالسلطة.

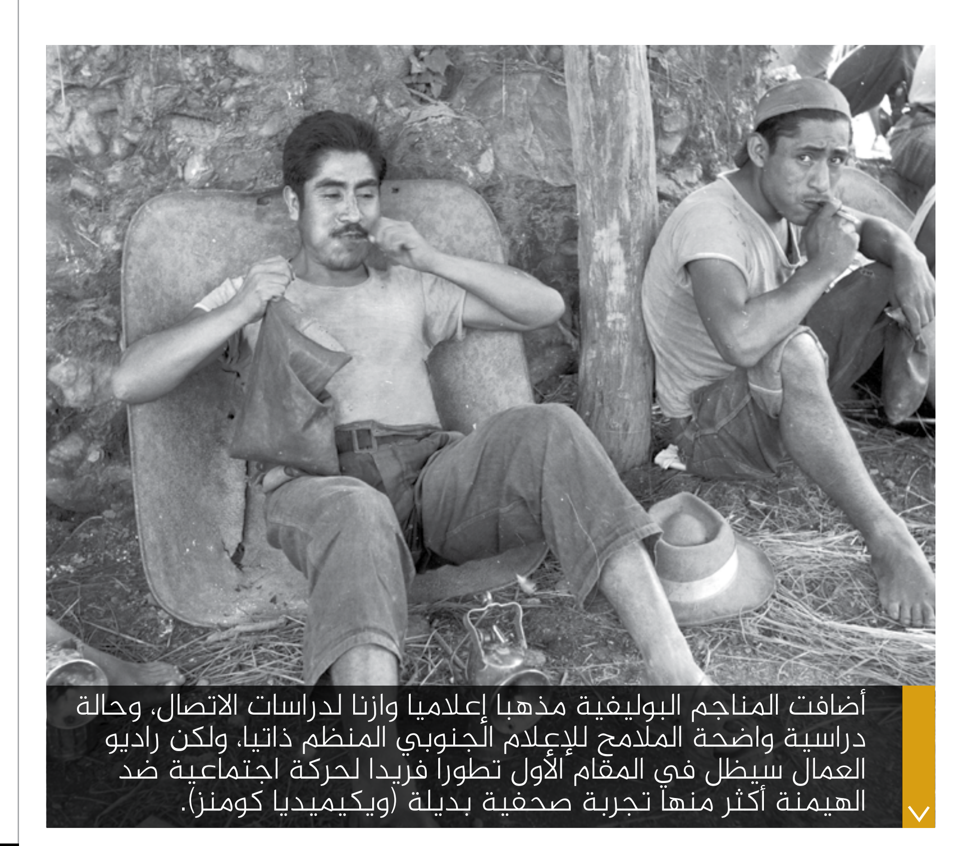
يصف الصحفي البوليفي خورخي مانسيلا (20) دور إذاعات المناجم بوصفه إعلاما بديلا في إسناد نضالات العمال ضد الانقلابات العسكرية، ويتناول كيف وضعت إذاعات العمال معايير جديدة في البث الإذاعي والتنظيم[21]. تطورت مناهج الاتصال لإذاعات العمال لاحقا باتجاه رفد المحليات الأبعد، فنشأ راديو Nacional لخدمة مراكز تعدين معزولة في أنحاء مختلفة من بوليفيا، وبتجهيزات إرسال متقدمة، بينما بث راديو SumacOrcko من مدينة Potosí المرتفعة، جنوب غربي البلاد، مستهدفا جمهور المحطات التجارية، ومُوّلت إذاعات أخرى لاحقا -راديو Matilda مثالا- من الاتحاد الفيدرالي للعمال مباشرة (22) وليس من عمال المناجم المحليين (23).



ظل «الجنوب العالمي» مصطلحا غير متماسك في السياقين الجغرافي والبنيوي، وفي حالات أكثر إشكالية، وقع في تحالفات غير متسقة مع خصائص جنوبية معرفية ارتبطت بدراسات التابعين Subaltern Studies ونظرية المركز والأطراف، أو بالموقف من الهيمنة والتفوق العرقي والطبقي، كما في حالة الهند مثلا.

الإذاعات وحكم الجنرالات

في نوفمبر/ تشرين الثانية سنة 1964، بعد تولي الجنرال بارينتوس السلطة مباشرة، نُفي صحفيو راديو La Voz Del-Mi-nero إلى الأرجنتين. وفي عام 1967، بثت محطات راديو عمال المناجم بيانا لحرب العصابات التي يقودها تشي جيفارا، والتي من خلالها عَلِم الجمهور لأول مرة بوجود مواجهات في الجبال. في أوقات الطوارئ، كان العمال والفلاحون وعائلاتهم يندفعون نحو محطة الراديو لحمايتها من هجوم الجيش المتوقع، وكانت سيدات المنازل والطلبة يتناوبون على الميكروفون لنقل أخبار هجوم الجيش للمستمعين. في الرابع والعشرين من يونيو/ حزيران 1967، وفي أثناء المهرجان المحلي للقديس يوحنا، هاجم الجنود عمال



أضافت المناجم البوليفية مذهبا إعلاميا وازنا لدراسات الاتصال، وحالة دراسية واضحة الملامح للإعلام الجنوبي المنظم ذاتيا، ولكن راديو العمال سيظل في المقام الأول تطورا فريدا لحركة اجتماعية ضد الهيمنة أكثر منها تجربة صحفية بديلة (ويكيميديا كومنز).

المناجم ليلا، وحاصروا راديو Del-Minero الذي طلب على الهواء المساعدة في الدفاع عن الإذاعة المحاطة بالجيش. قُتل زعيم نقابي بالرصاص، وهو يحمي أحد المذيعين (24).

أصدر الجنرال هوغو بانزر Banzer فور توليه للسلطة عام 1971، أمرا بإغلاق إذاعات العمال، ولكن الإجراء لم يكن ناجحا على المدى الطويل. في يناير/ كانون الثاني سنة 1975، هاجم الجيش مركز التعدين، واحتل محطات الراديو واستولى على أسطوانات شعبية قيمة وأجهزة استقبال راديو وتسجيلات تاريخية، وجرى تفكيك معدات الإرسال. دخل عمال المناجم في إضراب، مطالبين باستعادة الإذاعات. حاصرت القوات العسكرية قرى عمال المناجم، ولكن الإضراب هدد بالانتشار إلى مناطق أخرى من بوليفيا، وأرسلت الحكومة لجنة للتفاوض وعادت محطات الراديو للعمل في يوم عيد العمال (25). خلال انقلاب عام 1981، أغلق الجيش وسائل الإعلام في المدن، وكان المراسلون الدوليون العالقون في البيرو وتشيلي يحدّثون أخبارهم عبر الاستماع للموجة القصيرة من إذاعات المناجم (26) التي استمرت في بثها من مرتفعات مناطق التعدين.

تمكن عمال المناجم عبر سنوات حراكهم من استعادة محطاتهم الإذاعية، غير أن إستراتيجية الهيمنة العالمية (الشمالية) نجحت في تدمير قطاع التعدين البوليفي، وقُضي تماما على مجلس القصدير الدولي وانهارت أسعار القصدير عالميا. تبع ذلك التدابير الاقتصادية المؤلمة للحكومات البوليفية بعد العام 1985 التي أدت إلى إغلاق المناجم والقضاء على آلاف الوظائف في قطاع التعدين، وغادر العمال إلى المدن وتوقف عدد كبير من الإذاعات عن العمل. ورغم تراجع صناعة التعدين والضرر الذي لحق بالنقابات واستقلالها السياسي، فإن بعض قرى المناجم كافحت من أجل البقاء، بينما انطلقت إذاعات جديدة لخدمة مجتمعات أوسع من عمال المناجم والفلاحين والمدن القريبة (27)، من دون أن تفقد أولويتها المحلية.

> في معرض تحريره ونقله من الإسبانية إلى الإنجليزية جداول البث ومقابلات مع صحفيين في إذاعات المناجم، يذكر الباحث آلان أوكونو كيف حظي راديو المناجم باهتمام منظمة اليونسكو في السبعينيات بوصفه نموذجا لـ«الإعلام الديمقراطي».



إعلامٌ بَديل أم حَركةٌ اجتماعيّة؟

أضافت المناجم البوليفية مذهبا إعلاميا وازنا لدراسات الاتصال (28)، وحالة دراسية واضحة الملامح للإعلام الجنوبي المنظم ذاتيا، ولكن راديو العمال سيظل في المقام الأول تطورا فريدا لحركة اجتماعية ضد الهيمنة أكثر منها تجربة صحفية «بديلة»(29).

في معرض تحريره ونقله من الإسبانية إلى الإنجليزية جداول البث ومقابلات مع صحفيين في إذاعات المناجم، يذكر الباحث آلان أوكونو Alan O'Connor -أستاذ الدراسات الثقافية بجامعة ترينت Trent- كيف حظي راديو المناجم باهتمام منظمة اليونسكو في السبعينيات (30) بوصفه نموذجا لـ»الإعلام الديمقراطي» (31)، غير أنه يؤكد أن راديو المناجم كان حركة نضالية عمالية وليس إعلاما بديلا (32)، شكلت الإذاعات العمالية من خلالها تجربة مختلفة في نظريات الاتصال والخطاب؛ فمستويات الوصول والتمدد الأفقي لم تكن هي الهدف بقدر التغيير العضوي، والمشاركة لم تكن عالية مقارنة بالنماذج المعاصرة، لتمثل الإذاعات وجهة نظر بديلة بشأن قضايا لا تقع في دائرة اهتمام شركات الإعلام الكبرى. يجد الصحفي والباحث البوليفي ألفونصو غوموسيو Al-fonso Gumucio أن تجربة راديو عمال المناجم في بوليفيا، هي حالة فريدة ومبكرة جدا من «التواصل التشاركي من أجل التغيير الاجتماعي»، وتحققت من خلال البث الإذاعي، ولم تكن مشروعا تنمويا أو برنامجا للمنظمات غير الحكومية، بل كانت حراكا اجتماعيا مولته وأدارته المجتمعات المحلية ذاتيا وعلى نحو مباشر، وجزءا من مشروع ثقافي أوسع(33).

على الرغم من الإغلاقات المتكررة لإذاعات المناجم البوليفية، ومصادرة أجهزة الإرسال والبث، ونفي صحفييها، فإن هجمات الجيش لم

تكن هي التي أوقفت بث الإذاعات، بل التفكيك المتعمد لصناعة التعدين، بينما بدا أن أفضل طريقة للالتفاف على موجة الإعلام الجنوبي هي التخلص من المجتمع الرافض لقواعد الهيمنة. وخلافا لمقاربات «الجنوب العالمي» التي تراوح لاستنهاض نظرية معرفية متماسكة إزاء الهيمنة والكولونيالية، بمحددات وتمويل وأصوات شمالية في أحيان كثيرة، فإن راديو عمال المناجم يمكِّن من فهم خصائص إعلام الجنوب وفي مقدمتها الهوية المحلية المتماسكة في مواجهة «المواطنة العالمية cosmopo-litanism»، وموقف مغاير تجاه نظريات الاتصال والجمهور في الإعلام الليبرالي «المحافظ».

وعلى الرغم من تقدم صياغات نظرية واسعة من أطراف أكاديمية، صحفية وأيديولوجية بشأن موجة «الإعلام الجنوبي»، فإن مطلقها سيظل عامل منجم من القارة اللاتينية، في سياق وازن لحركة اجتماعية رافضة للهيمنة.



وعلى الرغم من تقدم صياغات نظرية واسعة من أطراف أكاديمية، صحفية وأيديولوجية بشأن موجة «الإعلام الجنوبي»، فإن مطلقها سيظل عامل منجم من القارة اللاتينية، في سياق وازن لحركة اجتماعية رافضة للهيمنة (شترستوك).

المراجع

(1) تعني الطليعة بالإسبانية، وتلفظ: LATAM: bahng-gwahr-dyah

(2) Gumucio-Dagron, A. (2005). Miners' Radio Stations a Unique Communication Experience from Bolivia.

(3) Arraya Pareja, L. H. (2018). Nuevos horizontes: The proposal for an anarchist theater in southern Bolivia. Revista de la Fuente Congresal, 12(55), 4-17.

(4) طافت فرقة «أفق جديد» عموم بوليفيا بين أعوام 1946-1961، مع تركيز على مجتمعات عمال المناجم، كانت تقدم ورشا وعروضا مسرحية من منطلق أناركي ومن قاعدة التعليم من أجل الفن Educación por el Arte.

(5) شكلت صناعة التعدين 60٪ من إجمالي صادرات الاقتصاد البوليفي.

(6) يسد كتاب آلان أوكونور (قائمة المراجع) فجوة واسعة بشأن أدبيات راديو المناجم في بوليفيا والأحداث المرتبطة.

(7) Shami, K.H. (2014). Community Radio and Minority Groups.

(8) RADIO PIO DOCE أداره الآباء الكاثوليك الرومان وأطلق عليه اسم البابا بيوس12، الذي أسند مهمة محاربة الشيوعية للمحطة، التي كانت معادية لإذاعات عمال المناجم، إلى أن تغير موقفها في السبعينيات تجاه العمال.

(9) Gumucio-Dagron, A. (2005). Miners' Radio Stations a Unique Communication Experience from Bolivia.

(10) Oglesby, C. (1969). After Vietnam, What?

(11) Hogan, E. and Patrick, S. (2024). A Closer Look at the Global South.

(12) Gramsci, A. (2005). The Southern Question.

(13) Oglesby, C. (1969). After Vietnam, What?

(14) Lenin, V. I. (1961). Imperialism, the Highest Stage of Capitalism: a Popular Outline.

(15) وضعه فلاديمير لينين بمدينة زيوريخ، كانون الثاني - حزيران 1916. ونشر في نيسان 1917 تحت عنوان: الإمبريالية، أحدث مراحل الرأسمالية (باللغة الروسية).

(16) Hobson, J. A. (1902). Imperialism: A Study.

(17) Schaay, M. (1980). A History of Bolivian Radio.

(18) Gumucio-Dagron, A. (2005). Miners’ Radio Stations a Unique Communication Experience from Bolivia.

(19) يطلق عليها محليا: عصابة – مافيا rosca.

(20) صحفي بوليفي ولد في أحد مراكز التعدين، وعاش في المنفى في المكسيك منذ الانقلاب العسكري عام 1980 Jorge Mancilla Romero

(21) O’Connor, A. (2004). Community Radio in Bolivia.

(22) Radio Matilde تأسس في ثمانينيات القرن العشرين، في وقت لاحق عن معظم إذاعات المناجم.

(23) Scifo, S. (2005). The Radio Journal International Studies in Broadcast and Audio Media.

(24) Schaay, M. (1980). A History of Bolivian Radio.

(25) Schaay, M. (1980). A History of Bolivian Radio.

(26) Gumucio-Dagron, A. (2005). Miners’ Radio Stations a Unique Communication Experience from Bolivia.

(27) Gumucio-Dagron, A. (2005). Miners’ Radio Stations a Unique Communication Experience from Bolivia.

(28) Shami, K.H. (2014). Community Radio and Minority Groups.

(29) يمكن النظر إلى مصطلح "البديل" على أنه استخدام إشكالي في حد ذاته، في خضوع لمحددات الهيمنة في سياق رفضها واستسلام لمعايير النموذج المعرفي المسيطر. وفي ممارسة أداتية لملء الفراغ أو إعادة تسمية مرتهنة للثقافة الشمولية.

(30) Barrios, E. and Dagron, A.G. (2015). La Voz del Minero.

(31) دعمت اليونسكو عام 1983 إنتاج أول فيلم وثائقي حول راديو عمال المناجم La Voz del Minero (Docu, 1983).

(32) O’Connor, A. (2004). Community Radio in Bolivia.

(33) Gumucio-Dagron, A. (2001). Making Waves: Stories of Participatory Communication for Social Change.

الصحافة والجنوب العالمي و«انتفاضة» مختار امبو

أحمد نظيف

كان للسنغالي محمد مختار امبو، الرئيس السابق لمنظمة اليونسكو وعيا مبكرا بخطورة التدفق غير المتكافئ للمعلومات ودورها في استمرار الفكرة الاستعمارية بأشكال جديدة، فأنشأ لجنة «ماكبرايد»، التي أغضبت «الشمال العالمي». كيف تبدو الفجوة اليوم، وهل أصبحت مقاومة امبو إرثا من الماضي؟ وماذا يحتاج الصحفيون في دول الجنوب للتخلص من سرديات وأطر الغرب؟

قبل أسابيع، توفي في العاصمة السنغالية داكار أحمد مختار امبو، الذي كان أول أفريقي أسود يتولى رئاسة منظمة دولية كبرى عندما انتخب مديرا عاما لمنظمة اليونسكو في منتصف السبعينيات، عن عمر ناهز 103 أعوام. شكل امبو أحد الأباء المؤسسين لما صار يعرف اليوم بالجنوب العالمي، وكانت فترة إدارته لليونسكو حافلةً بالسجال والجدل مع الغرب، وفي عهده انسحبت كل من بريطانيا والولايات المتحدة من المنظمة؛ فقد طرح الرجل باكرا نقدا جذريا لحالة احتكار الغرب للمعلومات والأخبار، وصياغة معايير الصحافة وتداول المعلومات دوليا، ولا سيما من خلال الترويج لـ«النظام العالمي الجديد للمعلومات» (1) وهو ما عدّته الحكومات الغربية خطوة لكسر هيمنتها على المعلومات بذريعة «تهديد حرية الصحافة». في مؤتمر اليونسكو عام 1982، رد امبو على الحملة الغربية قائلًا أمام الجمهور: «إذا كانت وسائل الإعلام الغربية تتمتع بالحرية في قول ما يحلو لها، فإن الآخرين يتمتعون بالحق في الحكم على ما تقوله»، فجاء الردّ «تصفيقا مدويا». كان الجنوب العالمي متعطشا لكسر تلك الهيمنة المديدة، التي مثلتها أربع وكالات أنباء غربية. وبعد عقود من تلك المحاولة، التي فشلت، قال امبو في مقابلة (2) مطولة نُشرت في كتاب عام 2021: «إذا ذهبت إلى أي دولة أفريقية، فستحصل على أخبار تنتجها دول الشمال، بما في ذلك الأخبار التي تهمنا، والتي يوزعها الشمال وفقًا لمصالحه الخاصة».

في سياق محاولته، كلف امبو شون ماكبرايد، الحائز على جائزة نوبل للسلام، برئاسة لجنة هدفها وضع مجموعة من التوصيات لجعل تمثيل وسائل الإعلام العالمية أكثر إنصافا. وقد

أصدرت لجنة ماكبرايد تقريرا بعنوان «أصوات متعددة، عالم واحد»، الذي حدد الفلسفة الرئيسية لنظام الاتصالات المعلوماتية العالمي الجديد في تقليل الاختلالات في بنية إنتاج الأخبار وتوزيعها، وتعزيز إستراتيجية عالمية للتواصل مع احترام الهويات الثقافية وحقوق الأفراد، وكذلك تعزيز إنشاء سياسات اتصال وطنية

وبدا واضحا أن امبو قد وصل متأخرا، ولكنه مع ذلك لمس جرحا عميقا في علاقات التطور اللامتكافئ بين شمال العالم وجنوبه، التي يفسرها سمير أمين بأنها قائمة على خمسة ضوابط هي: التمويل، والموارد الطبيعية، والعلوم والتكنولوجيا، وأسلحة الدمار الشامل، والمعلومات.

منذ الغزو الروسي لأوكرانيا، ثم هجوم السابع من أكتوبر وما أعقبه من حرب إبادة إسرائيلية مستمرة بحق الشعب الفلسطيني، صارت تلك الأسئلة أكثر إلحاحا، ليس فقط في مجالات نخبوية ومهنية ضيقة أصابها الإحباط بسبب الغياب شبه الكامل لآرائها في المناقشات الدولية وبسبب فرض نظرة عالمية ضيقة وغربية



محمد مختار امبو أمام مقر اليونسكو عام 1987 (تصوير: فرانسوا لوشون - غيتي).

لتكون متماسكة ومدمجة في عمليات التنمية، ولكن تلك المحاولة جاءت في سياق دولي كان يتجه نحو عصر هيمنة الإمبراطورية الأمريكية الأحادية، التي تكرست بعد نهاية الحرب الباردة وسيادة اقتصاد السوق في طوره النيوليبرالي؛ إذ صارت الاحتكارات الغربية في كل القطاعات -وليس فقط في الإعلام والصحافة- هي المحرك الأساسي لكل النشاط البشري.

ولكن التحولات التي شهدها الشمال نفسه، من تدهور مديد من منظومة الهيمنة الفكرية والتحلل الأيديولوجي لليبرالية، وتحولها إلى نزعات شعبوية متطرفة في ساحات كثيرة، فضلا عن ظهور قوى اقتصادية وجيوسياسية منافسة خارج المعسكر الغربي، كل ذلك أعاد الأسئلة التي طرحها أحمد مختار امبو إلى الواجهة مرة أخرى.

على بلدانها بشأن المعضلات التي تواجهها، بل يطرحها الجمهور الواسع؛ بشأن التحيزات العنصرية وغير المهنية لوسائل الإعلام الغربية تجاه كل ما يحدث في بقية العالم. خلق ذلك شكلا من أشكال التضامن اللاإرادي وغير المخطط له أحيانا بين أشتات الجنوب العالمي المنفصلة قوميا ودينيا وثقافيا، ولكنها متصلة بروابط المظلومية وقوة الضحية.

شكل محمد مختار امبو أحد الأباء المؤسسين لما صار يعرف اليوم بالجنوب العالمي، وكانت فترة إدارته لليونسكو حافلة بالسجال والجدل مع الغرب، وفي عهده انسحبت كل من بريطانيا والولايات المتحدة من المنظمة؛ فقد طرح الرجل باكرا نقدا جذريا لحالة احتكار الغرب للمعلومات والأخبار.

ليس سهلا القبض على تعريف نهائي للجنوب العالمي. ينطوي هذا المصطلح على تعقيد مثير للجدل في كثير من الأحيان بسبب الأبعاد التاريخية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية له، وتعود الصياغة الأصلية إلى الحرب الباردة كوسيلة لوصف المناطق في أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا وأوقيانوسيا، التي عانت من التخلف التنموي، نتيجةً للاستعمار الغربي. ومع ذلك، تطور هذا المصطلح وأصبح موضع نقاش واسع النطاق، ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى محاولته تجميع الدول شديدة التنوع تحت مظلة واحدة، ولكن من الصعب أن نلخص هذا البعد التاريخي بمصطلح واحد؛ ذلك أن الدول الواقعة في الجنوب العالمي لديها تجارب استعمارية مختلفة للغاية، ومستويات تصنيع مختلفة، وأنظمة سياسية مختلفة، الأمر الذي يجعل من الصعب بناء تعريف متماسك على أساس المعايير التاريخية أو السياسية وحدها. يشمل هذا الجنوب العالمي طيفا اقتصاديا واسع النطاق، من البلدان ذات الدخل المنخفض إلى الاقتصادات الناشئة، التي صارت تتمتع بنفوذ جيوسياسي كبير وقوة اقتصادية. ومن الناحية الجغرافية، فإن هذا المصطلح مضلل لأنه لا ينطبق بشكل صارم على البلدان الواقعة في نصف الكرة الجنوبي، فضلًا عن أنه يشمل مجتمعات ذات ثقافات ولغات وأديان وبنى اجتماعية مختلفة إلى حد كبير. لكن هذه التناقضات التاريخية والثقافية والجغرافية لا تنفي وجود هذا الجنوب، بوصفه مساحة مفاهيمية



أصدرت لجنة ماكبرايد تقريرا بعنوان «أصوات متعددة، عالم واحد»، الذي حدد الفلسفة الرئيسية لنظام الاتصالات المعلوماتية العالمي الجديد (تصوير: آلان مينجام/ جاما رافو - غيتي).

تتميز بتاريخ مشترك من المقاومة للقمع الاستعماري، وأيضاً ديناميكية قوة مضادة؛ إذ يوضع الجنوب العالمي مقابلاً موضوعيًّا للشمال العالمي، فالجنوب العالمي يستمد تعريفه ودوره وهويته من كونه المضاد للهيمنة الغربية؛ لذلك يسمى أحيانا على نحو أكثر شمولاً بـ«بقية العالم».

في سياق تضادٍّ بين الجنوب العالمي والغرب، يمكن طرح مسألة الصحافة أو الإعلام بوصفها جزءا من هذا التضاد. بالإشارة السابقة إلى مقومات الهيمنة الغربية في عصر ما بعد الحرب الباردة، وضع سمير أمين السيطرة على الأخبار والمعلومات إلى جانب السيطرة على الموارد الطبيعية؛ ذلك أنها تؤمن الهيمنة الثقافية والنفسية، التي هي أكثر حصانة وتأثيرا من السيطرة بالسلاح والقوة؛ فقد أدى فرض معايير الصحافة الغربية على مدى عقود إلى تعزيز التحيزات عن غير قصد، من خلال وضع الجنوب العالمي في إطار عدسة غربية. وكثيرا ما تسلط الأخبار الغربية الضوء على الفقر أو عدم الاستقرار السياسي أو الفساد في الجنوب، وهو ما قد شكل تصورات دولية سلبية وغذى طويلا الصور النمطية عن الجنوب وعن مجتمعاته وثقافاته، فهذا النهج يميل إلى إعطاء الأولوية للروايات المثيرة أو التي تحركها الصراعات، مما قد يطغى على قصص الإبداع أو التقدم الاجتماعي. وعندما يتبنى الصحفيون المحليون المعايير الغربية لجذب الجمهور الدولي، فإن تغطيتهم قد تخاطر بتكرار هذه التحيزات، وهو ما يقلل من شأن المجتمعات المتنوعة والمعقدة إلى مجرد مجازات تبسيطية وسلبية واستشراقية في كثير من الأحيان. ورغم وجود محاولات صحفية غربية مستقلة للقَطْع مع هذا النهج، فإن سيطرة وكالات الأنباء العالمية، التي تنتمي فكريا وماديا للغرب، ذات دور مهم في تغطية أخبار الجنوب العالمي، وتقتصر في كثير من الأحيان على التفسيرات الغربية أو الصراعات البارزة، ما يؤدي إلى إهمال القضايا اليومية التي تهم السكان المحليين. يخلق هذا الاعتماد مرشحا غريبا للأخبار، حيث تملي هذه الوكالات القصص التي تُعدّ جديرة بالنشر وكيفية صياغتها، وقد يواجه الصحفيون المحليون الذين يلتزمون بهذه المعايير الغربية صعوبة في تغطية القصص التي تلقى صدى عميقا في مجتمعاتهم، نظرا للتوقعات الدولية لأنواع معينة من الروايات.

في مؤتمر اليونسكو عام 1982، رد امبو على الحملة الغربية قائلًا أمام الجمهور: «إذا كانت وسائل الإعلام الغربية تتمتع بالحرية في قول ما يحلو لها، فإن الآخرين يتمتعون بالحق في الحكم على ما تقوله»، فجاء الردّ «تصفيقا مدويا».

علاوة على ذلك، فإن هذا المعايير –الجيدة والمتوازنة من حيث المبدأ– تتحول أحيانا إلى سلاح للتغطيات المتحيزة ضد قضايا الجنوب العالمي؛ فغالبا ما تؤكد الصحافة الغربية على الموضوعية، ولكن في المناطق التي يكون فيها للصحافة دور مباشر في العدالة الاجتماعية أو النضال السياسي والوطني، قد تبدو الموضوعية الصارمة غير مناسبة، كما هو الشأن في البلدان التي تتعامل مع الظلم المستمر بعد الاستعمار أو عدم المساواة الاقتصادية، وقد يرى الصحفيون أنفسهم مدافعين عن الفئات المهمشة أو غير الممثلة، فيتخذون موقفا بدلا من البقاء محايدين. ولعل النموذج الفلسطيني اليوم أفضل مثال على ذلك؛ فوسائل الإعلام الغربي، تساوي باسم الموضوعية القاتلَ بالضحية، عبر إنتاج صحافة «لوم الضحايا» على نطاق واسع، ويبدو فرض موقف محايد تجاهلا للواقع الاجتماعي المعقد الذي يواجهه الصحفيون وتجاهلا لإمكانات الصحافة بوصفها أداة للتغيير الاجتماعي في هذه المناطق.

يُضاف إلى ذلك دور المعسكر الغربي في إعادة تشكيل الصحافة في الجنوب العالمي من خلال سياسات التمويل والمساعدات الخارجية، بوصفها جزءا من الجهود المنهجية والمنظمة منذ بداية القرن العشرين لتشكيل الصحافة بوصفها مؤسسة سياسية للجنوب العالمي تسهم في تأبيد الهيمنة الثقافية الغربية. وقد درس جايرو لوغو أوكاندو، في كتابه «المساعدات الخارجية والصحافة في الجنوب العالمي: لسان حال الحقيقة» (3) على

نحو معمق هذه السياسات، والطريقة التي شُكِّلت بها الأيديولوجيات المهنية للصحافة في الجنوب العالمي؛ إذ دفعت المساعدات الخارجية نحو التقارب الثقافي بشأن أفكار النيوليبرالية وتوسيع الأسواق وأفضلية النموذج الأمريكي الأخلاقية، ما يعكس مجتمع السوق جنبًا إلى جنب مع توسع قوة الولايات المتحدة وثقافتها في جميع أنحاء العالم. ويرى لوغو أوكاندو أن هذه السياسات لم تقتصر على الحرب الباردة ولم تكن ظاهرة حديثة بحتة، بل كانت بدلا من ذلك تمرينا قسريا لبناء الأمة الاستعمارية وما بعد الاستعمارية. ونتيجة لذلك، يرى أن قواعد الصحافة تختلف بين المجتمعات في الجنوب العالمي، بغض النظر عن ادعاءات العالمية.

في المناطق التي يكون فيها للصحافة دور مباشر في العدالة الاجتماعية أو النضال السياسي والوطني، قد تبدو الموضوعية الصارمة غير مناسبة، كما هو الشأن في البلدان التي تتعامل مع الظلم المستمر بعد الاستعمار أو عدم المساواة الاقتصادية. وقد يرى الصحفيون أنفسهم مدافعين عن الفئات المهمشة أو غير الممثلة، فيتخذون موقفا بدلا من البقاء محايدين.



في المقابل، تحتاج إعادة تشكيل الصحافة في الجنوب العالمي نهجا يحترم الثقافات المحلية، ويشجع الاستقلال، ويعزز الابتكار. ويتطلب ذلك الابتعاد عن معايير الصحافة الغربية الصارمة لإنشاء أطر قابلة للتكيف تمكن الصحفيين من خدمة مجتمعاتهم بفاعلية، من دون الوقوع في براثن الدعاية؛ ذلك أن طيفا واسعا من أنظمة الجنوب العالمي يرفع اليوم شعارات التضاد مع الغرب، ليس على قاعدة التحرر بل على قاعدة وراثة الهيمنة الغربية على نحو آخر؛ فتطوير قواعد أخلاقيات الصحافة التي تأخذ في الحسبان السياقات السياسية والثقافية والاجتماعية المحلية، من شأنه أن يضمن أن تجد الممارسات الصحفية صدى لدى الجماهير المحلية. ويؤدي تحقيق التوازن بين الموضوعية والمناصرة في المناطق التي تواجه الظلم الاجتماعي إلى وضع معايير أخلاقية تدعم العدالة، مع التعامل مع قضايا المجتمع الحقيقية. كذلك يمكن للصحافة الموجهة نحو الحلول، التي تسلط الضوء على الاستجابات للمشكلات الاجتماعية، أن تحوّل السرد من السرد الموجه نحو الأزمات إلى السرد البنّاء؛ إذ تُظهر كيف تعالج المجتمعات قضايا مثل الفقر، والوصول إلى الرعاية الصحية، والتعليم، فهذا النهج لا يعمل على إعلام الجمهور فحسب، بل ويمكّنهم من تصور إمكانات التغيير الإيجابي، إضافة إلى ضرورة البحث عن نماذج مستدامة ماليا ومستقلة تحريرية. ومن أجل تقليل الاعتماد على التمويل الحكومي أو الأجنبي، يمكن لمنظمات الإعلام المحلية تجربة نماذج إيرادات متنوعة مثل العضوية المجتمعية، والتمويل الجماعي، والشراكات مع الشركات المحلية، وهو ما يسمح للصحفيين بالحفاظ على السيطرة التحريرية واستكشاف القصص المبتكرة، إلى جانب العمل على إنشاء شبكات صحفية إقليمية من خلال تطوير التحالفات داخل الجنوب العالمي لدعم تبادل المعرفة، وتجميع الموارد، وجهود المناصرة المصممة وفقا للظروف المحلية.

المراجع

1) Klein, E. (2023, October 25). The global first amendment war. Time. https://time.com/archive/6700256/time-essay-the-global-first-amendment-war/

2) Mbow, A. M. (2021). Amadou Mahtar Mbow, une légende à raconter: entretiens avec un éclaireur du siècle (French Edition). Independently published

3)Lugo-Ocando, J. (2020). Foreign aid and journalism in the global South: A mouthpiece for truth. Lexington Books.



يستمد الجنوب العالمي تعريفه ودوره وهويته من كونه المضاد للهيمنة الغربية؛ لذلك يسمى أحيانًا على نحو أكثر شمولًا بـ«بقية العالم» (تصوير: مريم مجد - غيتي).

هل استفادت دول الجنوب من الثورة الرقمية؟

الشافعي أبتدون

كان الأمل كبيرا لدى الباحثين أن تقلص الثورة الرقمية الفجوة بين دول الشمال والجنوب، لكن استفحال الاستبداد السياسي وسلطة الشركات التكنولوجية الكبرى، أشعل أسئلة حارقة عن جهود الكفاءات المحلية في تأسيس بديل منفلت من قمع السلطة ورقابة أثار الشركات الكبرى.

لا يزال مصطلح الجنوب العالمي في طور التشكل وليس متداولا بما فيه الكفاية في الدوائر الأكاديمية والإعلامية، ومع استمرار آلة الحرب الإسرائيلية على قطاع غزة لأكثر من عام وانتهاج إسرائيل سياسة قمع وسائل الإعلام الحرة وفي مقدمتها شبكة الجزيرة، فإن نقاط ضعف الإعلام العربي المستقلّ تتكشف أكثر، ولا سيما القصور في تصور أدواره ضمن المجتمعات التي يعمل فيها وينتمي إليها، كذلك كشفت عجزه عن التحرر من سطوة الأدوار التي رسمتها مؤسسات الإعلام الغربي ومنظمات المجتمع المدني الدولية، رغم أنها أدارت ظهرها لقيم الصحافة وأخلاقياتها التي بشرت بها في الدول النامية(1).

جغرافيا، يشير هذا المصطلح إلى 32 دولة تقع تحت خط الاستواء (في نصف الكرة الجنوبي)، على عكس 54 دولة تقع في شماله، واكتسب شعبية بوصفه تعبيرًا ملطفًا ليحل محل المصطلحات الأقل قبولا؛ فخلال الحرب الباردة، قيل إن البلدان التي لم تكن متحالفة مع كتل الولايات المتحدة الأمريكية أو الاتحاد السوفياتي تنتمي إلى «العالم الثالث» أو «الدول النامية»، وهي مصطلحات في جوهرها مجحفة بحق شعوب الجنوب العالمي(2).

مع انتشار الثورة التكنولوجية الإعلامية وسرعة تنقل البيانات والمعلومات عبر الوسائط المتعددة، تبدو فرص الاستفادة من الرقمنة الإعلامية لدول الجنوب العالمي واعدة، على الرغم من التحديات التي تواجهها الشعوب، خصوصا فيما يتعلق بشكل الأنظمة الحاكمة التي تحاول قمع الأصوات الحرة وحجب مؤسسات الإعلام البديل، ومكافحة رواد المنصات الرقمية، ولا سيما إكس وتيكتوك وفيسبوك. فما هي إمكانات الاستفادة والفرص المتاحة لصحفيي الجنوب العالمي لمواجهة التضليل والتحيز الإعلامي والقصور الذي تمارسه مؤسسات الإعلام الغربي



لا تزال هناك فجوة رقمية كبيرة في الجنوب العالمي نتيجة عدم توفر البنية التحتية التكنولوجية في بعض المناطق، إضافة إلى ارتفاع تكاليف الحصول على الإنترنت (فيصل عمر - رويترز).

في ترويج خطاب العنصرية والإسلاموفوبيا، وحجب الإعلام العربي الذي ينقل معاناة الشعبين الفلسطيني واللبناني بسبب حرب الإبادة الجماعية؟

لم يعد الإعلام التقليدي بصورته الجامدة فعالا في تقديم المعلومات وإيصالها؛ لأن الجمهور العريض يميل إلى الإعلام القديم؛ ولهذا فإن رقمنة الإعلام تشكل ضرورة ملحة لتقديم أداء أفضل بالنسبة للإعلام العربي ودول الجنوب العالمي، ولكن الانتقال السريع من استخدام الوسائل والتقنيات القديمة إلى الحديثة ليس كافيا لتحقيق التحول الإعلامي المطلوب؛ إذ يتطلب التحول الرقمي تغييرات جوهرية في هيكلة عمل المؤسسات الإعلامية وتطويرا جذريا في إنتاج المحتوى وطرق تقديمه للجمهور. يستلزم هذا الابتعاد عن القوالب التقليدية الجامدة وغير الفعالة، وابتكار أساليب جديدة تعزز من مكانة وسائل الإعلام التقليدية وتزيد من قدرتها على التأثير، وذلك من خلال الاستفادة من المنصات التفاعلية التي تلبي احتياجات الجمهور وتتماشى مع أذواقه المتغيرة (3).

التحول الرقمي في الإعلام أصبح حقيقة واقعة في الدول المتقدمة؛ إذ دخلت هذه الدول عصر الإعلام الرقمي بفضل التطور السريع للمنصات التفاعلية. وقد أسهمت شبكات الجيل الخامس في تمهيد الطريق لهذا التحول الشامل الذي غير أساليب الممارسة الإعلامية بالاعتماد على التقنيات الحديثة. كذلك أصبحت تكنولوجيا الذكاء الاصطناعي عنصرا أساسيا في الطفرة التي يشهدها الإعلام المعاصر، ما يعزز من كفاءته وقدرته على الوصول إلى الجمهور بطرق مبتكرة.

وامتد تأثير الإعلام الرقمي إلى كثير من المؤسسات الإعلامية عالميا وعربيا (الخليجية)، وفقد المئات من الصحفيين وظائفهم بسبب ثورة الإعلام الرقمي، خصوصا بعد احتجاب عدد من الصحف الورقية وتحول بعضها رقميا، ما قلل حجم العاملين

فيها، الأمر الذي استدعى من تلك المؤسسات المسارعة في مواكبة هذا المد الرقمي المتسارع ومحاولة التشبث بالقراء والجمهور، وشمل بناء إستراتيجيات رقمية واضحة وصناعة محتويات بقوالب رقمية واستخدام التطبيقات على الأجهزة الذكية واستغلال كل الفرص التي أتاحتها التقنية لضمان الإبقاء على علاقة وثيقة مع متابعيها(4).

رغم السعي نحو التحول الرقمي في الجنوب العالمي، فلا تزال هناك العديد من التساؤلات بشأن إمكاناته وكيفية دمجه في بيئة تفتقر إلى كثير من أدوات التحول الرقمي، أو تواجه سلطة لا تقبل الرأي الآخر وتعتمد فقط على وسائل الإعلام التقليدية التي تعدّ أداة دعاية للسلطة.

وتمثل ظاهرة الصحافة الإلكترونية ومواقع التواصل الاجتماعي أحد أبرز المستجدات التي أحدثت ثورة في عالم الإعلام والتواصل راهنا، وهي ظاهرة أفرزت تحولات وتغييرات في الإعلام بمفهومه التقليدي، سواء من حيث المضامين، أو المفاهيم، أو الأشكال أو طرق تناول الموضوعات والتعامل مع متصفحيها بمختلف توجهاتهم. ورغم هذا التحول، والتزايد السريع لعدد من الصحف المحلية والوطنية وحتى العربية منها المتوفرة على منصات على الإنترنت، نلحظ ضعفها وبُعدها عن المفهوم العلمي المتكامل والتفاعلي للصحافة الإلكترونية(5).

ومع تطور ما عرف بـ «الحقيقة المبرمجة» Compact Reality، الناشئة عن خليط من الإعلام التقليدي والمنصات الرقمية ذات التدفق الحر للمعلومات، تزايدت أهمية التحول الرقمي إعلاميا في الجنوب العالمي. وبفضل استخدام تكنولوجيا الذكاء الاصطناعي، تزايدت قدرة الآلات والروبوتات على معالجة البيانات والتعامل مع المحتوى الإعلامي ومراجعة النصوص، بل تقديم نشرات الأخبار والبرامج التلفزيونية، وأصبح توفير التقارير الإخبارية الآلية أمرا متاحا. ففي تقرير نشرته وكالة الأسوشيتدبرس كشفت أنها استعانت بأحد عشر روبوتا لتصوير مباريات الألعاب الأولمبية التي أقيمت عام 2016 بريو البرازيلية، وأنها استطاعت -من خلال ذلك- التصوير من زوايا يصعب على البشر التصوير منها، كذلك استخدم روبوت درونز لتغطية نزوح مئات العراقيين في منطقة جنوب الموصل.

رغم السعي نحو التحول الرقمي في الجنوب العالمي، فلا تزال هناك العديد من التساؤلات بشأن إمكاناته وكيفية دمجه في بيئة تفتقر إلى كثير من أدوات التحول الرقمي، أو تواجه سلطة لا تقبل الرأي الآخر وتعتمد فقط على وسائل الإعلام التقليدية التي تعدّ أداة دعاية للسلطة.

يمكن طرح بعض الإشكاليات جديا لبناء إستراتيجية دقيقة للتحول الرقمي في المستقبل، منها:

- نوع العلاقة وطبيعتها بين الوسائل التقليدية والوسائل الإلكترونية الحديثة، وفرص التكامل، والمضامين وأساليب المعالجة والإخراج، والقضايا التسويقية والإعلانية وطبيعة التشريعات والقوانين والأسس التنظيمية.

- المواثيق الأخلاقية ومواثيق الشرف التي يجب أن يعتمدها ويعمل وفقها كل من القائم بالاتصال والتواصل والمؤسسة الإعلامية عموما.

- إشكاليات تتعلق بغياب الكفاءات الإعلامية أو الإدارية للتحول رقميا ودعم جهود إيصال المعلومات ومكافحة ظاهرة التعتيم الإعلامي؛ فتوفر أكاديمية إعلامية تدعم التحول الرقمي وتدرب الصحفيين على الاستخدام الأفضل للوسائط المتعددة يمكن أن يساعد جهود صحفيي الجنوب العالمي في الخروج من بوتقة الحصار الذي فرضه الإعلام التقليدي والأنظمة القمعية.

وعلى الرغم من انتشار التكنولوجيا، فلا تزال هناك فجوة رقمية كبيرة في الجنوب العالمي نتيجة عدم توفر البنية التحتية التكنولوجية في بعض المناطق، إضافة إلى ارتفاع تكاليف الحصول على الإنترنت أو ممارسة السلطات سياسة حجب الإعلام البديل، وعدم الاستجابة لحاجة الجمهور للمعلومة بما يتقاطع مع اهتماماته، ما يشكل عائقا

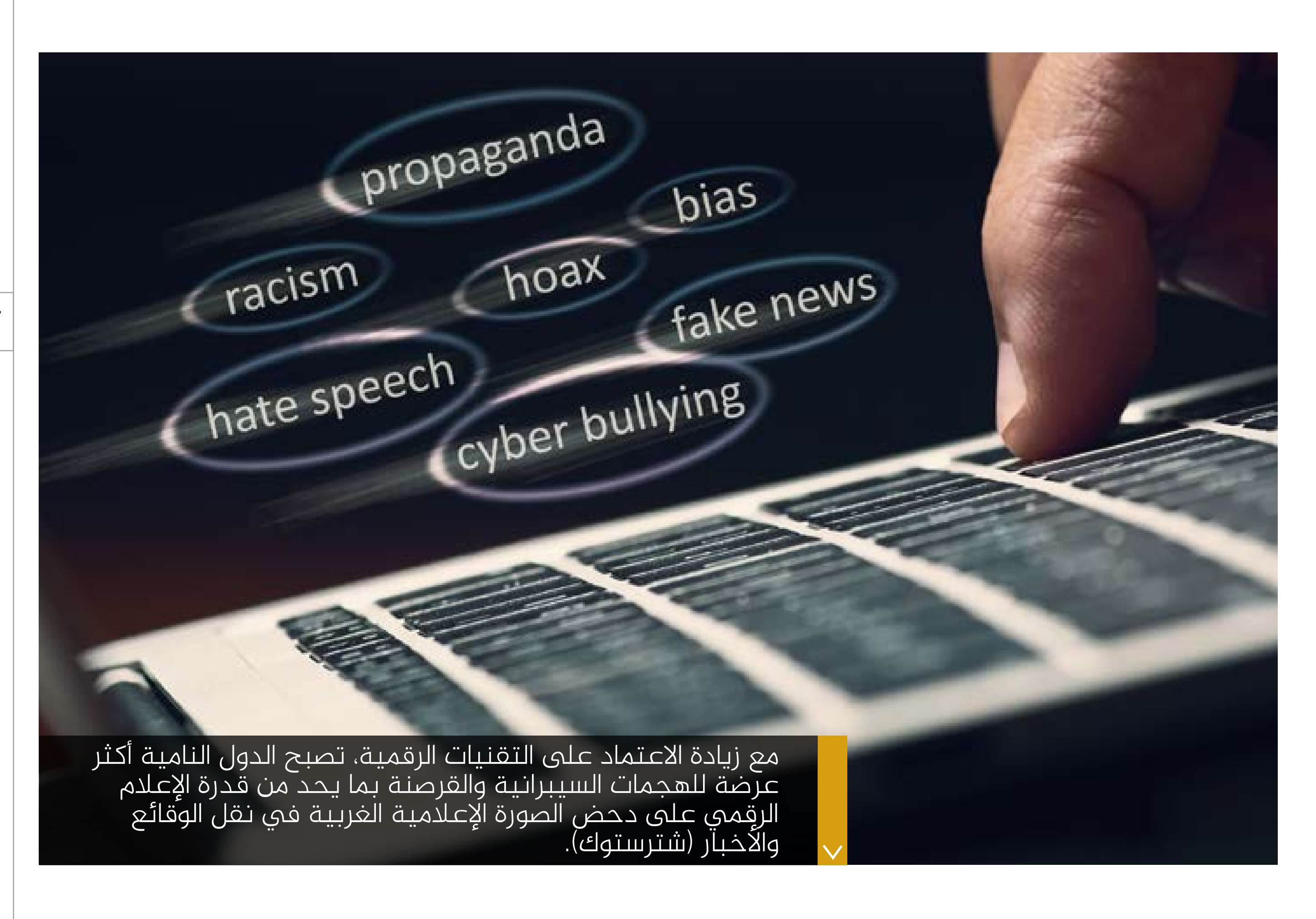
أمام تحقيق الاستفادة الكاملة من الثورة الرقمية.

ويمكن سرد مجموعة من العقبات التي تحد من سرعة الاستفادة من الثورة الرقمية الإعلامية في دول الجنوب العالمي على النحو التالي:

- التضليل والأخبار الزائفة: الانتشار السريع للمعلومات على الإنترنت يجعل من الصعب التحكم في تدفق الأخبار الزائفة أو المضللة. وفي بعض

توفر أكاديمية إعلامية تدعم التحول الرقمي وتدرب الصحفيين على الاستخدام الأفضل للوسائط المتعددة يمكن أن يساعد جهود صحفيي الجنوب العالمي في الخروج من بوتقة الحصار الذي فرضه الإعلام التقليدي والأنظمة القمعية.

- التبعية التكنولوجية: قد يؤدي الاعتماد على التكنولوجيا والشركات الكبرى إلى تعزيز التبعية التكنولوجية؛ إذ تظل معظم الابتكارات والأنظمة التكنولوجية مملوكة لشركات دولية مما يعرض الجنوب العالمي لخطر فقدان السيطرة على بياناته أو أنظمته الرقمية. كذلك فإنه يمنع من الاستفادة بشكل أكبر من برمجيات الذكاء الاصطناعي، فبدأت



مع زيادة الاعتماد على التقنيات الرقمية، تصبح الدول النامية أكثر عرضة للهجمات السيبرانية والقرصنة بما يحد من قدرة الإعلام الرقمي على دحض الصورة الإعلامية الغربية في نقل الوقائع والأخبار (شترستوك).

الدول النامية، يمكن أن تؤدي هذه المعلومات إلى تفاقم الصراعات أو التأثير السلبي على الرأي العام، أو اللجوء إلى نشر معلومات وأخبار مضللة تخدم فقط الدعاية الغربية المتصهينة في حجب المعلومات وحرية تدفقها، ولا سيما ما يتعلق بجرائم الإبادة التي تمارسها آلة القتل الإسرائيلية بحق المدنيين في غزة.

الشركات الأمريكية فرض تقييد في مد دول خليجية ولا سيما السعودية والإمارات بهذا النوع من التكنولوجيا المتطورة التي تساعد في تحسين أداء تدبير الشأن العام.



فرض العدوان الإسرائيلي على غزة ولبنان معادلات جديدة في اهتمام الصحفيين في العالمين العربي والنامي، خصوصا ما يتعلق بآلية مواجهة السردية الغربية (أحمد حسب الله - غيتي).

- التهديدات الأمنية والقرصنة: مع زيادة الاعتماد على التقنيات الرقمية، تصبح الدول النامية أكثر عرضة للهجمات السيبرانية والقرصنة، ما قد يحُد من قدرة الإعلام الرقمي على دحض الصورة الإعلامية الغربية في نقل الوقائع والأخبار.

- تأثيرات سلبية على الهوية الثقافية: قد تؤدي العولمة الرقمية إلى تآكل الهويات الثقافية المحلية بفعل التعرض المتزايد للمحتوى والمعلومات التي لا تتلاقى مع الهوية الثقافية والدينية لتلك المجتمعات، وقد تصبح الثقافات المحلية مهمشة في مواجهة تدفق الثقافة الغربية.

لا شك أن العدوان الإسرائيلي على غزة ولبنان فرض معادلات جديدة في اهتمام الصحفيين في العالمين العربي والنامي، خصوصا ما يتعلق بآلية مواجهة السردية الغربية الإعلامية في تناول أخبار الإبادة الجماعية؛ لذلك فإن الصحافة العربية تحتاج إلى إعادة النظر في المدونة الأخلاقية الغربية التي جرى تبنيها محليا، وتطوير مدونات عربية لا تتوقف عند اجترار تلك المعايير وتعريبها، مثل تحري الدقة والموضوعية والحياد، ولكن تصميم معايير أخلاقية جديدة، بما يلائم واقعا عربيا يمثل فشل التنمية، والاحتلال والقمع السياسي أبرز ملامحه(6).



المراجع

1) الإعلام العربي والانتماء للجنوب العالمي، معهد الجزيرة للإعلام، (تاريخ الدخول : 15 أكتوبر/ تشرين الأول 2024)، https://bit.ly/3YaJYX3

2) جوسيف. ني.جر، ماهو الجنوب العالمي، بروجكت سنديكيت، 1 نوفمبر/تشرين الثاني 2023، (تاريخ الدخول : 15أكتوبر/ تشرين الأول 2024)، https://bit.ly/3UcBhKF

3) الإعلام والتحول الرقمي، عرب ميديا، 21 مارس/ آذار 2021، (تاريخ الدخول: 15 أكتوبر/ تشرين الأول 2024)، https://bit.ly/3NvwCA2

4) ثورة الإعلام الرقمي، صحيفة جسر، 24 نوفمبر/ تشرين الثاني 2019، (تاريخ الدخول: 15 أكتوبر/ تشرين الأول 2024)، https://bit.ly/4f74Bu7

5) الإعلام المغربي والعربي في ظل الثورة الرقمية الحديثة، مدونات الجزيرة، 29 أبريل/ نيسان 2017، (تاريخ الدخول: 16 أكتوبر/ تشرين الأول 2024)، https://bit.ly/4h5PWRT

6) إمبريالية النشر: ذهنية الاستعمار في الصحافة الغربية، حبر، 1 يونيو/ حزيران 2024، (تاريخ الدخول: 16 أكتوبر/ تشرين الأول 2024)، https://bit.ly/3Yqs8AP

الجزيرة بلس.. كيف نغطي الانتخابات الأمريكية للجنوب العالمي؟

توني كارن

كثيرا ما ترتبط تغطية الانتخابات الأمريكية بالصراع بين المرشحين والتركيز على الجانب «الترفيهي» لكن تغطية الجزيرة + تنطلق من محاسبة أمريكا على سياساتها العالمية من منظور المجتمعات المهمشة عن مراكز السلطة، ولكنها متأثرة بعمق بها.

يتجه الأمريكيون إلى صناديق الاقتراع في الخامس من تشرين الثاني/ نوفمبر، وهو حدث عادة ما يتصدّر عناوين الأخبار في العالم وعلى مدى أسابيع عديدة. في الجزيرة+ (AJ+) تنطلق مقاربتنا لتغطية هذه الانتخابات من اعتبار مجموعة من القيم الأساسية التي ترتبط باسم «الجزيرة» في مشهد الإعلام العالمي؛ وهي هوية تحريرية ليس مركزها في الغرب، بل في الجنوب العالمي.

ولفهم ما يميزنا عن كبرى وسائل الإعلام الغربية، يكفي أن نقارن تغطيتنا للإبادة الجارية في قطاع غزة بتغطيتها؛ فالإعلام الغربي يميل على نحو روتيني إلى نزع الأنسنة عن ضحايا القصف الإسرائيلي، وتبنّي روايات الاحتلال، وإسقاط السياق عن الحرب والصراع وجوهره الاستعماري. أما تغطيتنا، فهي تتميز بالاهتمام بأصوات المهمشين، وسرد القصص الإنسانية التي توثّق معاناة الفلسطينيين الذين يكابدون صدمة الإبادة المتواصلة ويتعمّد الاحتلال القضاء على حاضرهم وحرمانهم من مستقبلهم. كذلك نأخذ على عاتقنا مسؤولية تزويد الجمهور بالأدوات والمعلومات السياقية الأساسية الضرورية لفهم الأحداث واستيعاب تاريخها. إن مجرد تقديم القصة من منظور إنساني وفي سياقها، يشكل اختلافا عن السرديات التي تلتزم بها القوى الغربية التي تدعم هذه الإبادة، ووسائل الإعلام السائدة التي تساندها.

ولكن ما علاقة كل هذا بمقاربتنا للانتخابات الأمريكية؟

في الواقع، للأمر علاقة كبيرة وجوهرية.

فإذا كنا نشكك في رواية وسائل الإعلام الغربية السائدة في الولايات المتحدة بشأن فلسطين وعلاقة الولايات المتحدة بالمنطقة العربية، أفلا يكون حريّا بنا أيضا أن نتفحص بصورة نقدية أيضا روايات تلك الوسائل وتغطيتها للشؤون السياسية المحلية فيها؟

عنـد طـرح هـذا السـؤال، فإننـا ننطلـق مـن نظـرة غيـر انتقائيـة للواقـع، وهـو واقـع يقـول إن الولايـات المتحـدة التـي تدعـم الإبـادة الجماعيـة في فلسـطين وتتواطـأ معهـا هـي نفسـها الدولـة التـي سـتنتخب رئيسـا جديـدا في السـابع مـن نوفمبـر/ تشـرين الثانـي.

لقـد كانـت الإبـادة الجماعيـة في فلسـطين محـور تركيزنـا في التغطيـة والعمـل على مـدار العـام الماضـي، ولا بـد أن تؤطّـر نظرتنـا إلـى الانتخابـات الأمريكيـة وقضاياهـا. على سـبيل المثـال نولـي قـدرا كبيـرا مـن الاهتمـام بالعبـث الـذي تمارسـه الولايـات المتحـدة في الجنـوب العالمـي، بعيـدا عـن صناديـق الاقتـراع، على نحـو يفـوق اهتمامنـا بغرائـب قصـص المرشـحين المتنافسـين في نظـام انتخابـي يتوافـق خطابـه وأسـلوبه مـع معاييـر الإعلام الترفيهـي.

لكـن، أليسـت هـذه الانتخابـات مؤشـرا مهمّـا أيضا على مـا يمكـن للعالـم توقعـه مـن قـوّة عظمـى في السـنوات الأربـع المقبلـة؟ وهـذا سـؤال قـد يكـون وجيهـا لـو كانـت السياسـة الخارجيـة للولايـات المتحـدة تمليهـا صناديـق الاقتـراع، إلا أن ذلـك بعيـد كل البعـد عـن الدقّـة.

يقـرر القـادة الأمريكيـون في البيت الأبيـض سياسـاتهم الخارجيـة على نحـو يختلـف كثيـرا عـن الوعـود التـي كانـوا يطلقونهـا في حملاتهـم الانتخابيـة، وهـي حـملات ليسـت السياسـة الخارجية أصلا عنصـرا أساسـيا فيهـا. ثمّـة قضيـة أو قضيتـان فاصلتان تقسـم بيـن معسـكرين للناخبيـن، وهمـا الإجهـاض والهجـرة، إلا أن الجـزء الأكبـر مـن الحـملات يعتمـد على لغـة الدعايـة وإثـارة العواطـف والمشـاعر (الخـوف/ الغضـب/ التفـاؤل/ الفـرح)، ويسـتغل هـذه العناصـر صنـاع الدعايـة لإلصاقهـا بصـورة مرشّـح بعينـه، تمامـا كمـا يحاولـون إثـارة مشـاعر معينة عند تصميـم دعايـة لمنتج اسـتهلاكي؛ كسـيارة جديـدة أو شـامبو.

إلا أن فـوز ترامـب أو هاريـس لـن يغيّـر كثيـرا في سـيرة الخـراب الإسـرائيلي المدعـوم مـن واشـنطن الـذي نـرى آثـاره اليـوم في فلسـطين ولبنـان. كلا المرشـحين يشـتركان بالتـزام عميـق في دعـم الحـروب الإسـرائيلية وانتهاكاتهـا حتّـى لـو كانـت غالبيـة الناخبيـن يعارضون الجرائـم الإسـرائيلية في غـزّة.

إلا أن الحيـاة في أمريكا نفسـها قد يطـرأ فيهـا اخـتلاف تبعـا لفـوز مرشّـح على آخـر. مـن ذلـك مـثلا طريقـة التعامـل مـع المظاهـرات المؤيـدة لفلسـطين، التـي قـد تشـهد تضييقـا كبيـرا عليهـا في حـال فـوز ترامـب، الـذي يتوعّـد



إن مجرد تقديم القصة من منظور إنساني وفي سياقها، يشكل اختلافا عن السرديات التي تلتزم بها القوى الغربية التي تدعم هذه الإبادة، ووسائل الإعلام السائدة التي تساندها (شترستوك).

أيضا بإجراءات ذات طابع عنصري شرس بحق السود والمهاجرين غير البيض، هذا إضافة إلى قضية الإجهاض والمخاوف بين النساء الأمريكيات بشأن فرض مزيد من القيود عليهنّ في هذا الجانب.

كذلك فإن لترامب وهاريس مواقف متباينة بشأن الحرب الأوكرانية، بيد أن مخرجات هذه الحرب ليست ذات اهتمام كبير بين الناس في الجنوب العالمي. أمّا الأمر الثابت، فهو أنّه ليس هنالك أي سبب لتوقع أي اختلاف بينهما بما يتعلق بدعم إسرائيل.

نولي قدرا كبيرا من الاهتمام بالعبث الذي تمارسه الولايات المتحدة في الجنوب العالمي، بعيدا عن صناديق الاقتراع، على نحو يفوق اهتمامنا بغرائب قصص المرشحين المتنافسين في نظام انتخابي يتوافق خطابه وأسلوبه مع معايير الإعلام الترفيهي.

أمريكا من الخارج

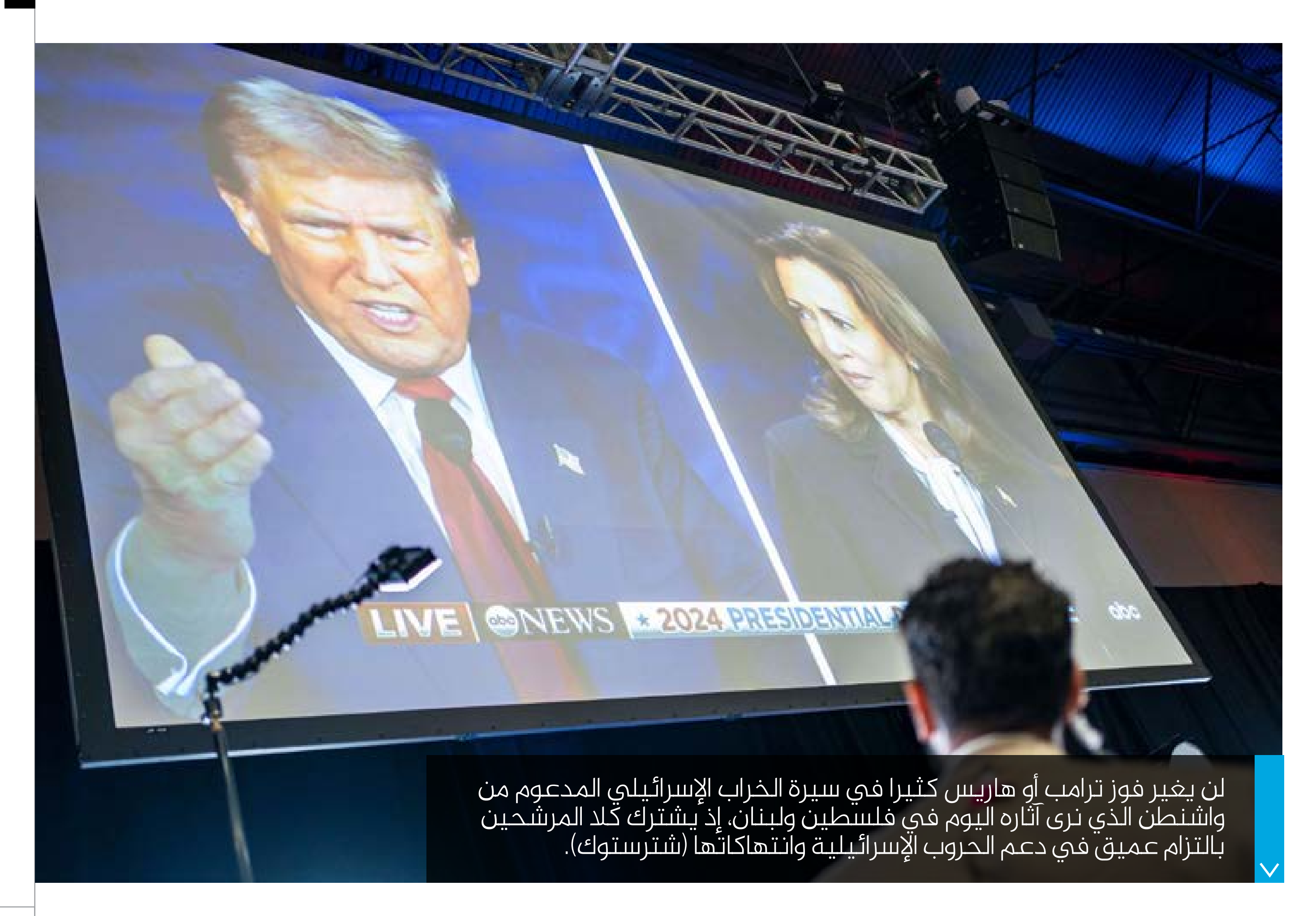
تقدم الجزيرة + تغطية مصمّمة لمساعدة جمهورنا العالمي على فهم الكيفيات التي يعمل وفقها النظام في الولايات المتحدة، من دون الوقوع في فخ مقاربة سطحية لا ترى في الولايات المتحدة سوى «نموذج للديمقراطية»؛ فنحن نسلط الضوء على ذلك الانفصال الحاصل بين الخيارات التي يعبر عنها غالبية الناخبين، وبين نتائج الانتخابات ومخرجاتها.

في العام 2020، فاز جو بايدن في الانتخابات الرئاسية متفوقا على دونالد ترامب بواقع 7 ملايين صوت. ولكن، لو أن 120،000 ناخب فقط من هؤلاء في أربع ولايات رئيسية قرروا البقاء في بيوتهم عوض المشاركة في التصويت، فسيظلّ بايدن متفوقا على خصمه بواقع 6.9 ملايين صوت، ولكنه سيكون قد خسر أمامه. وهذه ليست حالة استثنائية ولا شاذة، بل هي نمط ناجم عن ذلك التصميم الغريب لنظام الانتخابات الأمريكي. لقد انتخب ترامب رئيسا عام 2016، رغم أنه حلّ ثانيا أمام منافسه، بفارق 3 ملايين صوت. أما جورج بوش الابن، فقد حلّ هو ثانيا أيضا عام 2000، وبفارق نصف مليون صوت. ليس ثمّة غش ولا تزوير هنا، ولكن هذا ما تقتضيه آلية «المجمع الانتخابي»، وهي آلية دستورية مصممة للتحكم بإرادة الناخبين.

أما في مجلس الشيوخ، فالحالة أكثر تطرفا؛ إذ يُمنح مقعدان لكل ولاية، بصرف النظر عن تعداد سكانها. هذا يعني أن صوتا واحدا فقط للمجلس من ولاية وايومينغ (584،000 نسمة) يعادل 70 صوتا من كاليفورنيا (40 مليون نسمة)؛ أي إنه يمكن السيطرة على هذه الهيئة التشريعية الوطنية بأقل من 20% من الأصوات على المستوى الوطني.

ولقد لَحظنا عادةً كيف أن وسائل الإعلام الغربية تتعامل مع هذه الجوانب في النظام الانتخابي الأمريكي إذ تضخّم دور الأقليّة وتعزز من سيطرتها، بعدِّها جزءا عاديا من الديمقراطية الأمريكية العريقة لا ينبغي الوقوف عنده والتدقيق فيه. أمّا نحن فنرى أهمية بالغة في توضيحها لجمهورنا العالمي ومقارنتها بالمعايير الديمقراطية الأخرى؛ وذلك لأننا على قناعة بأن الناس يستحقون التعرض لتغطية أكثر عمقا ومسؤولية نقدية بشأن طريقة عمل النظام السياسي في الولايات المتحدة. هذا يعني التعامل مع كل الجوانب ذات التأثير، بدءا من الدور المتعاظم دوما للمليارديرات وأصحاب رؤوس الأموال في اختيار المرشحين، وصولا إلى تلمّس الإرث المستمر للآباء المؤسسين للولايات المتحدة، الذين كانوا مترددين إزاء الديمقراطية، فوضعوا دستورا يتيح ضبط إيقاعها.

نحن مدركون لحقيقة أنه إذا ما جرى تقييم الانتخابات الأمريكية وفق مسطرة المعايير الديمقراطية التي تفرضها المؤسسات الأمريكية عند تقييمها للانتخابات التي تحصل في الجنوب العالمي، فإنها قد تخفق في التقييم. يمكن مثلا النظر في إعلان المبادئ الخاصة بمراقبي الانتخابات الدولية التي وضعها مركز كارتر ويطبقها في عدد من الدول على مدار العقود الماضية. تلك المبادئ تنص على أن «الانتخابات الحقيقية» تتطلب ضمان «الحق والفرصة في التصويت



لن يغير فوز ترامب أو هاريس كثيرا في سيرة الخراب الإسرائيلي المدعوم من واشنطن الذي نرى آثاره اليوم في فلسطين ولبنان، إذ يشترك كلا المرشحين بالتزام عميق في دعم الحروب الإسرائيلية وانتهاكاتها (شترستوك).

بحرية، وأن يُنتخب المرشحون وفق آليات عادلة من خلال الاقتراع العام والمتساوي بين الناخبين، والتصويت السري أو أي آلية تصويت حرة مماثلة، وعلى نحو يجري وفقه عدّ الأصوات بدقة والإعلان عنها بنزاهة واحترام نتائجها».

في الجزيرة+ (AJ+) تنطلق مقاربتنا لتغطية هذه الانتخابات من اعتبار مجموعة من القيم الأساسية التي ترتبط باسم «الجزيرة» في مشهد الإعلام العالمي؛ وهي هوية تحريرية ليس مركزها في الغرب، بل في الجنوب العالمي.

ولكن هل يتمتع المواطنون الأمريكيون جميعهم بحق التصويت بحرية؟ الجواب هو لا، ليسوا جميعا؛ فالولايات المتحدة، بخلاف الدول الحديثة الأخرى، ليس فيها قانون تصويت موحّد على المستوى الوطني أو هيئة وطنية للانتخابات، بل هنالك عدة قوانين بحسب كل ولاية، ويمكن للسلطات في أي منها أن تضع عددا من الشروط التي من شأنها أن تعيق وصول المواطن الأمريكي الأسود الفقير إلى صناديق الاقتراع، أو غيره من المواطنين من غير البيض أو من القبائل الأصليّة، في حال كان ساد افتراض بأنهم سيصوّتون ضدّهم. وفي جعبة السلطة دوما إستراتيجيات تتيح ذلك، من ذلك مثلا قوانين الهوية الانتخابية، ونظام تسجيل مربك للناخبين، وتقليل عدد مراكز التصويت البعيدة أصلا عن أماكن سكن هذه المجتمعات. هنالك في الواقع قانون يجرّم مجرد تقديم الماء للناخبين الذين ينتظرون لساعات في الطوابير تحت أشعة الشمس الحارقة(1).

الأمر ذاته ينطبق على «التصويت المتساوي» الذي تخفق به الولايات المتحدة وفق النظام الراهن؛ فالفوارق التي يخلقها الاعتماد على «المجمع الانتخابي»(2) لتقرير الرئيس الجديد أو التجديد له، وتلك التي يخلقها مجلس الشيوخ في النظام السياسي في الولايات المتحدة، تقوّض



يعتمد الجزء الأكبر من الحملات الإنتخابية على لغة الدعاية وإثارة العواطف والمشاعر (الخوف/ الغضب/ التفاؤل/ الفرح)، ويستغل هذه العناصر صناع الدعاية لإلصاقها بصورة مرشّح بعينه (شترستوك).

من حقّ «التصويت المتساوي»؛ أي الحق في أن يكون لكل مواطن صوت ذو قيمة متساوية مع أصوات الآخرين.

يمنح النظام في الولايات المتحدة السياسيين إمكانية إعادة رسم المناطق (districts)، في حال يضمن التحكم في الأصوات التي يتوقّع أن ينالها المرشّح المنافس. ورغم أنّ للمواطنين الحق في اللجوء إلى المحاكم والاعتراض، فإنه يلزم التنويه هنا إلى أن المحكمة العليا لا بد أن تنال موافقة مجلس الشيوخ، وهو مجلس- بحكم تصميمه الذي يمنح كل ولاية مقعدين- بات بمنزلة «فيتو» للأقلية الحاكمة؛ لهذا نرى اليوم أن المحكمة بأعضائها تميل إلى تبني مواقف سياسية تكاد تتناقض على نحو صارخ مع تلك التي يعبر عنها غالبية الأمريكيين.

ما نسعى إلى تجنّبه في التغطية، فهو الابتعاد عن تناول الانتخابات الأمريكية وكأنّها «سباق خيول»، كما تفعل وسائل إعلام غربية؛ لأن مثل هذه التغطية محدودة القيمة تحريريا، لم تكن ذات بعد سلبي بالمعنى المهنيّ.

بناء على ذلك، فإن مقاربتنا لكيفية تغطية الانتخابات الأمريكية تعتمد أساسا على هذا التفحّص التحليلي من الخارج، ومن منظور المجتمعات المهمشة عن مراكز السلطة، ولكنها متأثرة بعمق بها: من قطاع غزة إلى المكسيك، ومن مجتمعات المواطنين السود في الولايات المتحدة الذين يكافحون من أجل الحق في التصويت المتساوي، إلى المجتمعات العربية الأمريكية التي يغضبها تجريد العرب من إنسانيتهم في فلسطين ولبنان، وغيرها، على مدى عقود طويلة.

أما ما نسعى إلى تجنّبه في التغطية، فهو الابتعاد عن تناول الانتخابات الأمريكية وكأنّها «سباق خيول»، كما تفعل وسائل إعلام غربية؛ لأن مثل هذه التغطية محدودة القيمة تحريريا، لم تكن ذات بعد سلبي بالمعنى المهنيّ، والجزيرة ليست بمعرض المنافسة في مثل هذا النوع من التغطية الترفيهية التي تكاد تحتكرها عدة وسائل إعلام نافذة؛ فنحن لا نرى أي قيمة تحريرية ولا سوقيّة باعتبار قاعدة جمهورنا في التقيّد بنمط التغطية السائد غربيا، وإغراق المتابعين بخطابات المرشحين،



لا نجد أي مسوّغ تحريري للانغماس في ما بات يعرف بـ»حروب الثقافة»، وهي معارك لا غاية منها غالبا سوى إلهاء الجمهور عن قضايا أعمق، فضلا عن كونها معارك لا تعني جمهورنا في الجنوب العالمي (شترستوك).

أو الجري وراء التحقق من صحة تصريحاتهم وكأنها أصلا تُلقى من دون رغبة في التوجيه أو التضليل أحيانا، كذلك لا نجد أي مسوّغ تحريري للانغماس في ما بات يعرف بـ»حروب الثقافة»، وهي معارك لا غاية منها غالبا سوى إلهاء الجمهور عن قضايا أعمق، فضلا عن كونها معارك لا تعني جمهورنا في الجنوب العالمي.

ولأن وسائل الإعلام الغربية المهيمنة قد طَبَّعت تلك التشوهات الديمقراطية المتأصلة في نظام «المجمع الانتخابي»، فإنها غالبا ما ستتجاهل التركيز على قضايا تمسّ «التصويت الشعبي»، أي اختيار غالبية الناخبين، وستعدّها ذات أهمية ثانوية، بينما نؤمن بأنه من الضروري تسليط الضوء على هذه المسألة، التي توضّح أن ما يختاره غالبية الأمريكيين الذين شاركوا في التصويت، قد لا يكون هو العنصر الحاسم بالضرورة في اختيار رئيسهم، بخلاف الحاصل في معظم الديمقراطيات في العالم. لذا، حتى وإن كانت الآليات الدستورية الأمريكية القائمة على حكم الأقلية تفرز نتيجة مختلفة، فإننا نختار التركيز على ما اختاره الناس.

المراجع

1) في ولاية جورجيا، ينص قانون صدر عام 2021 على تجريم تقديم الماء أو الطعام للناخبين إذا كانوا على مسافة 150 قدما (50 مترا) من مركز الاقتراع، أو على مسافة 25 قدما (7 أمتار) من أي ناخب يقف في الطابور. الهدف من القانون تقليل فرصة التأثير على الناخبين قبل التصويت، إلا أنه أثار كثيرا من الجدل بسبب احتمال تأثيره على مشاركة الناخبين والحدّ من حقهم في التصويت، خصوصا في المدن ذات الكثافة السكانية العالية. (المترجم)

2) المجمع الانتخابي، ويعرف أيضا بالهيئة الانتخابية، هو مؤسسة دستورية أمريكية مؤقتة تُنشأ كل 4 سنوات لاختيار رئيس البلاد من أحد المرشحين للانتخابات، ويصوت فيها الأعضاء نيابة عن المواطنين الذين انتخبوهم. يتألف المجمع الانتخابي من 538 مندوبا عن الشعب، ويحتاج المرشح الرئاسي إلى الحصول على 270 صوتا للفوز بالانتخابات.

طلبة الصحافة في غزة.. ساحات الحرب كميدان للاختبار

أحمد الأغا

مثل جميع طلاب غزة، وجد طلاب الإعلام أنفسهم يخوضون اختبارا لمعارفهم في ميادين الحرب بدلا من قاعات الدراسة. ورغم الجهود التي يبذلها الكادر التعليمي ونقابة الصحفيين لاستكمال الفصول الدراسية عن بعد، يواجه الطلاب خطر «الفراغ التعليمي» نتيجة تدمير الاحتلال للبنية التحتية.

داخل خيمة ببلدة الزوايدة وسط قطاع غزة، تلملم ملاك فرحات (23 عاما) بعض أوراقها وتجلس أمام حاسوبها، الذي حظي من بين مقتنياتها الأخرى بفرصة النزوح معها؛ لإنجاز ملفات تدريبية في مساق التنقيب عن البيانات في الإعلام.

ملاك، الطالبة بقسم الإعلام الرقمي في الجامعة الإسلامية، انقطعت عن دراستها منذ السابع من أكتوبر/ تشرين الأول الماضي، وهي تحاول جاهدة أن تستعيد فرصتها لإكمال فصلها الدراسي على أعتاب التخرج؛ إذ أعلنت جامعتها مطلع سبتمبر/ أيلول المنصرم عودة الدراسة عن بُعد بنظام التعليم الإلكتروني.

تقول الطالبة فرحات لـ «مجلة الصحافة»: «إنّ التعليم الإلكتروني غير ملائم لبعض المساقات التطبيقية، مثل التدريب العملي والتصوير والمونتاج والتصميم الجرافيكي وهندسة الصوت، فضلا عمّا يتعلق بالوسائط الرقمية وإنشاء الفيديو والمساقات المتخصصة في الذكاء الاصطناعي».

وكغيرها من طلبة الجامعات في قطاع غزة، عانت الطالبة فرحات من انقطاع التيار الكهربائي، وعدم توفر خدمات الإنترنت وضعفها، ناهيك عن انعدام بيئة دراسية ملائمة في ظل التخوفات من القصف، أو الاستهداف الإسرائيلي المُتوقع في أي وقت وكل مكان.

تستعيض فرحات عن نقص فرص التدريب الحالية بالجامعة بخلق فرصتها بالتعاون مع بعض المؤسسات المحلية، من خلال التدرب على التصوير وإنشاء القصص الصحفية الرقمية عن واقع المعاناة الإنسانية بغزة في ظل الحرب الإسرائيلية.

وجدت ملاك في هاتفها المحمول فرصةً كبيرة لإنتاج تلك القصص، وعبر ما تعلمته ضمن مساق «إعلام الهواتف الذكية»، إضافة إلى خبرتها في مجال تصوير الأطعمة والمنتجات الغذائية التي كانت تستهويها قبل الحرب.

أمّا الخريجة الجامعية شيماء أبو الهوى (24 عاما)، فكان واقع تجربتها مؤلما مع انقطاع الاتصالات وخدمة الإنترنت بداية الاجتياح البري الإسرائيلي لمدينة غزة.

بنبـرة متحسـرة تحكـي كيـف خسـرت فرصـة عملهـا منسـقةً إعلامية مـع إحـدى المؤسسـات الإغاثيـة الخارجيـة؛ نتيجـة انقطاع الإنترنـت في المنطقـة التـي نزحـت إليهـا، وكان مـن الصعوبة بمـكان التقـاط أي إشـارة للخدمـة.

وتضيـف: «مـا إن أثبـت قدرتـي على العمـل حتـى جـاءت الحـرب، لتنسـف كل مـا بنيتـه مـن جهـد وتدريـب طيلـة سـنوات دراسـتي السـابقة».

أهـدر انقطـاع الإنترنت فرصا كثيرة لشـيماء، ولا سـيما أنهـا كانت على

بجامعـة الإسـراء والصحفـي بقنـاة القـدس اليـوم، أن انقطاعـه المفاجـئ عـن الدراسـة أثـر سـلبا على تحصيلـه الدراسـي، وعـدم انتظامـه في إنجـاز مشـروع التخـرج، وبعـض المسـاقات التـي تعيـق إتمـام إجـراءات تخرجـه.

وينظـر فيصـل إلـى التواصـل مـع الجامعـة ومشـرفي التدريـب الميدانـي بأنـه بالـغ الأهميـة لتعزيـز شـخصية الطالـب وصقـل مهاراتـه في الحوار وبنـاء العلاقات والتشـبيك مـع المؤسسـات، فـضلا عـن «أن الحضـور الوجاهـي

ومجـازر مدرسـتي الجاعونـي والسـردي، يقـول: «حينئـذ كنـت على مقربـة مـن المـوت».

تسهيلات جامعية

في سـياق الحـرب، تبـدو الدراسـة في غـزة مسـتحيلة، ولكـن الدكتور وائـل المناعمـة، رئيـس قسـم الصحافـة والإعلام في الجامعـة الإسلاميـة بغـزّة، يبـرز جهودهـم في إنقـاذ الموسـم الدراسـي قـائلا إن الجامعـة سـهّلت للطلبة المُتوقـع تخرجهـم تسـجيل بعض



يهدف مركز التضامن الإعلامي إلى توفير مساحة عمل للصحفيين الفلسطينيين بعد تدمير مؤسساتهم الإعلامية بسبب قصف الاحتلال (خاص).

وشـك إجـراء مقابلـة إلكترونيـة للحصـول على منحـة لدراسـة الماجسـتير بمعهـد الدوحـة للدراسـات العليـا.

تدريب على خط النار

يـرى فيصـل أبـو القمصـان (25 عامـا)، الطالـب بقسـم الإعلام

في المسـاقات التدريبيـة يخلـق الصحفي المُمـارس للمهنـة، القادر على خـوض تجـارب الميـدان اسـتعانة بمـا يقدمـه أي مسـاق مـن تكليفـات وتغطيـات للأحداث والفعاليـات التـي تُكـوِّن شـخصية الصحفـي».

ورغـم أنـه لا يـزال طالبـا، فـإن أبـو القمصـان غطـى حـرب الإبـادة الجماعيـة، ولا سـيما مجـزرة السـبت الأسـود بمدينـة النصيرات،

المسـاقات إلكترونيـا بجامعـات الضفـة الغربيـة، كطالـب زائـر وفق الأنظمـة واللوائـح التـي تتبعهـا، ضمـن رؤيتهـا لـ»إسـعاف« هـؤلاء الطلبـة الذيـن توقـف تخرجهـم على مسـاق أو عـدة مسـاقات.

ويضيـف المناعمـة في حديثـه لـ»مجلـة الصحافـة« أنّ القسـم تابـع مـع الطلبـة تسـجيل المسـاقات التـي تتـواءم مـع الخطـة الأكاديميـة، وحتـى بعـد

انتهاء الفصل لتسوية أوضاعهم ومعادلة تلك المساقات، معتبرا أنها تجربة مهمة على صعيد تواصل الطلبة وتدارك الفاقد التعليمي، واستمرارية العملية التعليمية من دون انقطاع.

داخل خيمة ببلدة الزوايدة وسط قطاع غزة، تلملم ملاك فرحات (23 عاما) بعض أوراقها وتجلس أمام حاسوبها، الذي حظي من بين مقتنياتها الأخرى بفرصة النزوح معها؛ لإنجاز ملفات تدريبية في مساق التنقيب عن البيانات في الإعلام.

ويوضح الأكاديمي الفلسطيني أن القسم استأنف الدراسة خلال الفصل الحالي اعتمادا على منظومة التعليم الإلكتروني، ووفق جدول مُكثّف للدراسة وتقديم الامتحانات، بما لا يخل بجودة المُخْرَج التعليمي.

يؤكد عميد كلية الإعلام بجامعة الأقصى الدكتور غسان حرب، أنّ الكلية وفّرت التسهيلات كافة لطلبتها في التسجيل والتعليم الإلكتروني، وعبر إدراج المحاضرات المصورة لتسهيل تلقي المعلومة وفهمها وشرحها بأسلوب مُبسط يُمكّنهم من ربط ما درسوه بواقعهم الميداني.

ويتفق الأكاديميان على أن كليّات الإعلام وأقسامه في غزة تركز حاليا على المساقات النظرية، والمساقات المزدوجة التي تحمل شقا نظريا، مُرجئين تسجيل المساقات العمليّة إلى ما بعد انتهاء الحرب أو توفر الظروف المواتية لتدريسها.

مَردُّ الجامعات في إقرار هذا الاستثناء يرجع بحسب ما ذكره الأكاديميان إلى أنّ مساقات التصوير والتصميم والمونتاج الإذاعي والتلفزيوني وهندسة الصوت وغيرها بحاجة إلى بيئة تدريبية ومعامل ومختبرات، لا تتوفر حاليا بسبب ظروف الحرب، وانقطاع معظم الطلبة جغرافيا عن الجامعات.

استفاد قسم الإعلام من تجربة وباء كورونا في التعامل مع غياب الطلبة عن القاعات الدراسية، «بَيدَ أنّ تحدي الحرب وانقطاع التيار الكهربائي والإنترنت وظروف النزوح وتدمير مباني الجامعة كل ذلك فرض واقعا مختلفا لتعليم الطلبة»، يقول المناعمة.

وبشأن تدريب الطلبة ميدانيا، يشير المناعمة إلى أن القسم يُرشح طلبة للتدريب مع مؤسسات إعلامية بوصفهم صحفيين متعاونين، وبعضهم أثبت كفاءته وبات مصدرا لتغطية وسائل الإعلام خلال الحرب.

وحثّ المناعمة طلبة الإعلام في فلسطين على التركيز على تعلم اللغات الأجنبية؛ لأنها السبيل الأقوى في مخاطبة الرأي العام الدولي، ونقل مجريات الصراع



استفاد قسم الإعلام من تجربة وباء كورونا في التعامل مع غياب الطلبة عن القاعات الدراسية، «بَيدَ أنّ تحدي الحرب وانقطاع التيار الكهربائي والإنترنت وظروف النزوح وتدمير مباني الجامعة كل ذلك فرض واقعا مختلفا لتعليم الطلبة (تصوير: حسن الجدي - غيتي).

على حقيقته من دون تضليل، مشيرًا إلى أن الاحتلال وعلى مدار حروبه السابقة دائما ما يحاول جاهدا كسب معركة الصورة الإعلامية لصالحه.

> **وإلى جانب الترشيح من قبل الكلية للطلبة لخوض غمار التدريب، كان ثمة تعاون وثيق بين جامعة الأقصى ونقابة الصحفيين الفلسطينيين لاستضافة طلبة الإعلام في مركز التضامن الإعلامي في مدينتي خان يونس ودير البلح، والاستفادة من خدماتهما في توفير المكان المناسب للطلبة والخريجين للعمل والتدريب الإعلامي.**

وإلى جانب الترشيح من قبل الكلية للطلبة لخوض غمار التدريب، كان ثمة تعاون وثيق بين جامعة الأقصى ونقابة الصحفيين الفلسطينيين لاستضافة طلبة الإعلام في مركز التضامن الإعلامي في مدينتي خان يونس ودير البلح، والاستفادة من خدماتهما في توفير المكان المناسب للطلبة والخريجين للعمل والتدريب الإعلامي.

وكما أن الحرب دمرت المؤسسات التعليمية وأعدمت أسباب التعلم، فقد شكّلت بيئة خصبة للتدريب على مختلف الفنون/ الأنماط الصحفية. ويقول عميد الكلية في هذا الصدد: «كثير من طلبة الكلية استطاعوا العمل مع وسائل إعلامية محلية وعربية وعالمية لإيصال الصوت الفلسطيني للعالم أجمع».

احتضان نقابي

منذ بداية الحرب، سعت نقابة الصحفيين إلى إيجاد حلول لمساعدة الطلبة، كما يشرح نقيب الصحفيين الفلسطينيين الدكتور تحسين الأسطل، إذ إن «النقابة فتحت أبوابها لمساعدة طلبة الإعلام وخريجيه انطلاقا من مسؤوليتها تجاههم في ظل تدمير الجامعات بما تحتويه من مختبرات وأستوديوهات وأجهزة خاصة بكليات الإعلام».

ويحدد الأسطل في حوار مع «مجلة الصحافة» أوجه هذا التعاون في «منح الخريجين بطاقة العضوية الطارئة لتسهيل مهامهم الإعلامية لمن أراد، بالاتفاق مع الاتحاد الدولي للصحفيين، إضافة إلى الخدمات التي يقدمها مركز التضامن الإعلامي التابع لنقابة الصحفيين، ولا سيما ورش العمل وندوات التوعية وجلسات الدعم النفسي واستضافة مناقشات مشاريع التخرج لطلبة الإعلام».



دمر الاحتلال الإسرائيلي 465 مدرسة وجامعة بشكل جزئي وكلي وقتل 880 معلما وأكاديميا منذ 7 أكتوبر 2023 حتى الآن وفقاً للمركز الإعلامي الحكومي بغزة (تصوير: دعاء روقة - رويترز).

الاحتلال الذي يريد قتل الصحافة في الضفة الغربية

هدى أبو هاشم

«كل يوم يعيش الصحفي هنا محطة مفصلية، كل يوم كل ثانية، كل خروج من المنزل محطة مفصلية، لأنه قد يعود وقد لا يعود، قد يصاب وقد يعتقل»، تختصر هذه العبارة للصحفي خالد بدير واقع ممارسة مهنة الصحافة بالضفة الغربية خاصة بعد السابع من أكتوبر...

في عام 2002، كان محمَّد الأطرش طفلا في مدينته الخليل، وسط فلسطين، لمّا أعطى رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك أرئيل شارون الضوء الأخضر لبدء عملية «السور الواقي» في الضفة الغربية. كان بيته من ضمن البيوت التي حوصرت في المدينة لشهرين، واقتحمته قوات الاحتلال عدة مرات، وتعرض الأطرش للضرب والاعتداء من قبل الجنود.

اليوم، يتنقل محمد الأطرش، مراسل قناة الجزيرة، بين بلدات شمال الضفة الغربية، موثقا مجريات عملية «مخيمات صيفية» التي يشنها الاحتلال الإسرائيلي هناك، مسجلا شهادات الناس في المخيمات المحاصرة، ومستحضرا ذاك الطفل في الخليل قبل 22 سنة سابقة، «أعرف بالضبط ماذا يعني أن تكون داخل منطقة عكسرية محاصرة، وهذا ما يعظِّم داخلي مسؤولية نقل الحدث»، يقول الأطرش.

بدأت العملية العسكرية التي وصفها الاحتلال الإسرائيلي بأنها الأوسع منذ عملية «السور الواقي» فجر يوم الأربعاء 28 آب/ أغسطس 2024، شملت هجوما على مدن جنين وطولكرم وطوباس وبلدات شمالي الضفة الغربية المحتلة؛ بحجة أن الأوضاع هناك باتت «مصدر قلق جدي» للاحتلال، ما زاد من تحديات الصحفيين في تغطية الأحداث وممارسة المهنة.

الطريق إلى الشمال قبل بدء العملية العسكرية بيوم واحد، قرر الأطرش (33 عاما) أخذ إجازة من العمل والعودة من نابلس إلى الخليل؛ لرؤية زوجته وحضور ذكرى ميلاد ابنته سلمى، ومشاركتها وأخواتها تحضيرات العودة للمدارس، وبعد نصف ساعة فقط، تلقى رسالة تأمره بالتوجه فورا إلى الشمال بعد أن تسللت قوات الاحتلال إلى جنين وطولكرم وطوباس على نحو متزامن معلنة بدء عملية عسكرية فيها: «كنتُ معنيّا بالبقاء مع أولادي، ولكنها رغبة هامشية لأن البلاد كلها تتعرض لحرب، وهناك أناس يدفعون أثمانا باهظة فيها».

تَوجّه الأطرش من الخليل جنوبا إلى محيط جنين شمالا، وحاول دخولها من المدخل الجنوبي إلا أن قوات الاحتلال كانت متمركزة هناك، فتوجه إلى المنطقة الغربية وكان في انتظاره تمركز آخر. وبعد ساعة ونصف من المحاولات تمكن الأطرش أخيرا من دخول جنين عبر طرق

التفافيــة موصلــة للمدينــة.

يواجــه الصحفيــون الفلســطينيون في الضفــة الغربيــة تحديــا كبيــرا متمــثلا في الوصــول إلــى المعلومــة والمصــادر وأماكــن الحــدث؛ إذ إن تعــرُّض منطقــة لعمليــة عســكرية يعنــي إغلاق قــوات الاحــتلال مداخلهــا وحِصار أهلهــا وضــرب شــبكة الاتصــال والإنترنــت فيهــا، ومنــذ 7 أكتوبــر/ تشــرين الأول 2023، ارتفــع عــدد الحواجــز الإســرائيلية بيــن المــدن والقــرى الفلســطينية في الضفــة مــن نحــو 500 حاجــز إلــى 710 على الأقــل، بينمــا تشــير تقديــرات أخــرى إلــى أن العــدد قــد يتجــاوز 840 حاجــزا بمــا في ذلــك البوابــات والعوائــق الأخــرى كالســواتر الترابيــة والمكعبــات الإســمنتية.

يحتــاج التنقُّــل بيــن جنيــن وطولكــرم -علــى ســبيل المثــال- نصــف ســاعة فــي الســيارة، ولكــن مــع الحواجــز العســكرية قــد يســتغرق ســاعتين أو ثلاثًــا، بحســب الصحفــي خالــد بديــر، مراســل قنــاة الغــد، وتكــون عملية التنقــل بحــد ذاتهــا «مغامــرة ومخاطــرة»، لتعمُّــد الاحــتلال توقيــف الســيارات الصحفيــة التــي تمــرُّ بحواجــزه، وتفتيشــها بدقــة، ثــم طــرح مجموعــة مــن الأســئلة على الصحفــي «مــن أيــن أنــت؟ أيــن ســتتوجه؟ مــاذا تعمــل؟ لصالح مــن؟ مــاذا تصوِّر؟ يعيــش بديــر (35 عاما) في مدينة طولكــرم شــمال الضفــة الغربيــة، ويتنقــل بشــكلٍ مســتمر بيــن المناطــق التــي أعلنهــا الاحــتلال ضمــن العمليــة العســكرية، ويكون ملزمــا مــع كل صبــاح بمتابعــة التطــورات كافــة فــي البلــدات والقــرى والمخيمــات وتحــركات



الصحفي محمد الأطرش مراسل الجزيرة قناة الجزيرة أثناء تأدية عمله في الضفة الغربية (إنستغرام).

الآليــات العســكرية، وهــو مــا يُســبب إرهاقــا نفســيا على المــدى البعيــد. «أحيانــا أســأل نفســي كيــف يبــدأ الصحفــي خــارج فلســطين يومــه؟ هــل يســتيقظ مثلنــا فــي الخامســة صباحــا؟ ومــا جدولــه اليومــي إن كانــت بلاده خاليــة مــن الاقتحامــات؟».

كان مــن ضمــن التعقيـــــدات الميدانيــة التــي استــــحدثها الاحــتلال بعــد 7 أكتوبــر، تفتيــش الهواتــف على الحواجــز العســكرية، مــا كان يضطــر الأطــرش إلــى حذف تطبيــق التليغــرام عنــد كل حاجــز عســكري تجنبا للاعتقــال أو الضرب، كمــا جــرى مــع عــدة مواطنيــن بســبب اشــتراكهم بالقنـــــوات الرســمية للمقاومــة الفلســطينية.

ويتعــرض الصحفيــون إلــى التأخير والتعطيــل فــي أثنــاء عبورهــم بالحواجــز العكســرية، إضافــة إلــى التدقيــق فــي الهويــات وأحيانًــا حجزهــا، ويلتزمــون -كالجميــع- الهــــدوء تجنبــا لــردة فعــل إســرائيلية غيــر متوقعــة، «نخــاف أن ننظــر إليهــم أو أن نحــرِّك أيدينا فيتوهمــوا أننــا بصــدد تنفيــذ عمليــة فدائيــة فيشــرعوا بــإطلاق النــار» كمــا يقــول الأطــرش.

صحافــة مســتهدفة واحــدة مــن التطــورات الخطيــرة التــي شــعر بهــا الصحفــي الفلســـطيني بعــد عمليــة الســابع مــن أكتوبــر تغيُّــر قواعــــد إطلاق النَّــار؛ إذ أدانــت مقررتـــــان أمميتــان فــي مجــال حقــوق الإنســان، فــي بيــانٍ مشــترك بتاريــخ 12 أيلــول/ ســبتمبر، حــوادث العنــف والمضايقــات والترهيــب والعرقلــة بحــق الصحفييــن العامليــن فــي الضفــة الغربيــة المحتلــة، و«مــن المزعــج جــدا أن نــرى جنــودا إســرائيليين فــي الضفــة الغربيــة يكــررون الازدراء نفســه لسلامــة الصحفييــن كمــا هــو الحــال فــي غــزة، فــي انتهــاك صــارخ للقانــون

يتنقل محمد الأطرش، مراسل قناة الجزيرة، بين بلدات شمال الضفة الغربية، موثقا مجريات عملية «مخيمات صيفية» التي يشنها الاحتلال الإسرائيلي، مسجلا شهادات الناس في المخيمات المحاصرة، ومستحضرا ذاك الطفل في الخليل قبل 22 سنة سابقة، «أعرف بالضبط ماذا يعني أن تكون داخل منطقة عسكرية محاصرة، وهذا ما يعظِّم داخلي مسؤولية نقل الحدث».

الدولي».

ويذكر البيان أن هناك 3 حوادث على الأقل وقعت في أيلول/ سبتمبر، في جنين وطولكرم، أطلقت خلالها قوات الأمن الإسرائيلية الذخيرة الحية على الصحفيين أو مركباتهم، في أثناء تغطيتهم العمليات العسكرية، ومُنعوا منذ 27 آب/ أغسطس من تأدية عملهم وأُجبروا على المغادرة تحت تهديد من الجيش الإسرائيلي، في حين أفاد كثيرون آخرون بملاحقتهم بواسطة جرافات تديرها قوات الأمن الإسرائيلية.

يوم 2 أيلول/ سبتمبر الماضي، توَّجه بدير مع مجموعة من الطواقم الصحفية نحو «دوار السينما» في مخيم جنين لتغطية تحركات الجرافات العسكرية؛ إذ أطلق الاحتلال النار من نوافذ الجرافات فوق رؤوس الصحفيين، ما أدى إلى إصابة مدير التصوير في الوكالة الفرنسية الصحفي رونالدو بشظية في اليد اليمنى، وأصيبت مراسلة الجزيرة مباشر شذا حنايشة بشظية رصاصة في الرأس.

توزع الصحفيون حينئذ إلى عدة مناطق، فتوجه بدير وفريقه إلى شارع «أبو بكر». وواصل الاحتلال استهدافهم بالرصاص الحي حتى باتوا خارج مرمى النيران. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، حاولت الجرافات المدرعة دهسهم عدة مرات في أثناء رجوعها باتجاههم، ما دفعهم إلى الاحتماء بمدخل مبنى تجاري. اصطدمت الجرافة بأحد أعمدة المبنى، وفي تلك اللحظة فكرت: «إما أن تهدم الجرافة المبنى فوق رؤوسنا، وندفن هنا أحياء، وإما أن يستهدفنا الجندي بالرصاص، وفي كلتا الحالتين ستكون النتيجة الموت».

يرى بدير أن السترات الصحفية التي من المفترض أن تحمي الصحفي وتعرِّف به بوصفه يتبع جهة محايدة، صارت هدفا للاحتلال في ميدان الضفة الغربية، ولا سيما مع عدم وجود ضوابط تحكم الجندي الإسرائيلي أو تعرضه للمساءلة القضائية، وبالنسبة لبدير فإن «كل يوم يعيش الصحفي هنا محطة مفصلية، كل يوم كل ثانية، كل خروج من المنزل محطة مفصلية، لأنه قد يعود وقد لا يعود، قد يصاب وقد يعتقل».

لم تكن النيران بعيدة عن الأطرش؛ إذ أطلق جنود الاحتلال النار عليه وعلى بقية فريق الجزيرة في أثناء وجودهم بالقرب من مستشفى الأمل في جنين، حيث كانوا يغطون الأحداث الجارية في محيطه، غير قادرين على توثيق إطلاق النار أو رصده. يقول الأطرش: «عندما ينزعج جيش الاحتلال من الصحفيين، يطلق النار عليهم أحيانا مباشرة أو تحذيريا»، وقد كان شاهدا في جنين على إطلاق النار على سيارتين تابعتين للصحافة بينما كانتا في طريقهما لتغطية مستجدات بيت محاصر في المدينة، ما أدى إلى إصابة زميله الصحفي محمد منصور برصاصة في يده، إلى جانب إصابة ثلاثة صحفيين آخرين.

شجعت حكومات الاحتلال المتعاقبة قمع الصحافة والصحفيين في الأراضي الفلسطينية وفق ما يرى المركز الفلسطيني للتنمية والحريات الإعلامية (مدى)، من خلال غياب آليات لملاحقة جنود الاحتلال على أفعالهم، وإفلاتهم من العقاب طوال السنوات الماضية، ما أدى إلى إطلاق أيديهم لقمع الصحفيين والحريات الإعلامية وتغييب الصورة.

يوثِّق المركز في تقاريره الشهرية الانتهاكات الإسرائيلية بحق الحريات الإعلامية في فلسطين التي شهدت ارتفاعًا خلال شهر سبتمبر/ أيلول الماضي متجاوزة 140 اعتداء مقارنة بما مجموعه 104 انتهاكات وُثِّقت خلال شهر آب/ أغسطس السابق، وتوزعت على 132 انتهاكا في الضفة الغربية و8 اعتداءات في قطاع غزة، منها ثلاث جرائم قتل لصحفيين/ات.



ارتفع عدد الحواجز الإسرائيلية بين المدن والقرى الفلسطينية في الضفة من نحو 500 حاجز إلى 710 على الأقل، بينما تشير تقديرات أخرى إلى أن العدد قد يتجاوز 840 حاجزا بما في ذلك البوابات والعوائق الأخرى (يسري الجمل - رويترز).

من ضمن التعقيدات الميدانية التي استحدثها الاحتلال بعد 7 أكتوبر، تفتيش الهواتف على الحواجز العسكرية، ما كان يضطر الأطرش إلى حذف تطبيق التليغرام عند كل حاجز عسكري تجنبا للاعتقال أو الضرب، كما جرى مع عدة مواطنين بسبب اشتراكهم بالقنوات الرسمية للمقاومة الفلسطينية.

مجمل المخاطر والتحديات التي واجهها الأطرش دفعته إلى توخي مزيد من الحذر في طمأنة عائلته وتخفيف مشاعر الخوف والقلق عنهم، وفي مرات يسأل نفسه: هل من الأفضل أن يصرح على الهواء مباشرة بتعرضه لإطلاق النار، أم يحتفظ بذلك لنفسه لتجنب إثارة قلق عائلته؟ يقول: «الظروف التي يمر بها الصحفي خطِرة؛ لذلك يحاول قدر الإمكان تجنب نقل مشاعر الخوف إلى عائلته». لا يفضل الأطرش مراسلة أسرته أو التحدث معهم في أثناء وجوده في مناطق خطرة، ويحرص على إخبارهم دائما بأنه في منطقة آمنة نسبيا، كذلك يتجنب إرسال مقاطع فيديو يتخللها صوت إطلاق النار، ويخلع خوذة الصحافة عند الاتصال بأطفاله ليطمئنهم.

من جهتها، لا تتوقف زوجة بدير عن توصيته بالحذر والبقاء في مناطق آمنة، وتقول له دائما: «ابنك جهاد ينتظرك لتعود». ورغم حرصه على اتباع كل إجراءات السلامة، مثل ارتداء الخوذة والسترة والبقاء في المناطق الآمنة نسبيا، فإنه يعجز عن التعهد بالعودة سالما، قائلا: «كل تلك الإجراءات لا تعني شيئا أمام جندي إسرائيلي خارج أي رقابة، قادر برصاصة واحدة على إنهاء المشهد».

يواجه الصحفي الفلسطيني تحديا آخر يتمثل في الوصول إلى المعلومات وسماع قصص الأشخاص الذين يتعرضون للاعتداء. يجد الصحفي نفسه في مفاضلة بين المخاطرة

بالدخول إلى المخيم أو البقاء في مكان آمن لضمان استمرارية التغطية. يقول الأطرش: «من الأفضل أن يبقى الصحفي في منطقة آمنة لضمان استمرارية التغطية».

ومع ذلك، رغم المخاطر المتوقعة، يسعى الصحفي إلى الحضور في موقع الحدث، مدركا أن وجود الصحافة قد يحمي المدنيين ويحد من جرائم الاحتلال، ويوضح أن «الجندي الإسرائيلي يفكر مرتين عندما تكون الكاميرات موجودة؛ فالمنطقة الفارغة تختلف عن تلك التي توثقها العدسات»، وهذا ما يشكل دافعا إنسانيا للصحفيين للتغطية.

يستذكر الأطرش حصار الحي الشرقي في جنين الذي استمر ثلاثة أيام، حيث مُنع الصحفيون من الدخول، حتى ظهر مقطع فيديو يوثق مقتل رجل مسن أصم على يد قوات الاحتلال، وتركه ينزف حتى الموت قبل أن تمر آلية عسكرية فوق جسده. يقول الأطرش: «إيماني بضرورة سرد هذه القصص دفعني إلى التواصل مع أي صوت داخل الحي؛ لأن تلك القصص ستختفي إن لم تُروَ».

وفي حالات الحصار، يضطر الصحفيون إلى التواصل مع أهالي المخيم للحصول على المعلومات. يقول الأطرش: «كنت أتواصل مع مواطن في حي الدمج بجنين يطلعني على تحركات الجيش»، ولكن ضعف شبكة الاتصال وانقطاع الكهرباء كانا يعوقان التواصل على نحو متكرر، مضيفا: «كان يتحدث معي لدقيقتين، ثم ينقطع الاتصال أو ينفد شحن هاتفه».

يحاول بدير في لحظات الاقتحام نقل القصص الإنسانية للعائلات المحاصرة من عدم توفُّر الماء والغذاء، وظروف الأطفال وكِبار السن والنساء، ثمَّ إطلاق مناشدات من خلال التواصل مع منظمة الصليب الأحمر أو جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني، أو حتى المؤسسات والحملات الشبابية بغية كسر الحِصار وإدخال كميات من الخبز والمياه وحليب الأطفال.

توجّه بدير مع مجموعة من الطواقم الصحفية نحو «دوار السينما» في مخيم جنين لتغطية تحركات الجرافات العسكرية؛ إذ أطلق الاحتلال النار من نوافذ الجرافات فوق رؤوس الصحفيين، ما أدى إلى إصابة مدير التصوير في الوكالة الفرنسية للصحافة رونالدو بشظية في اليد اليمنى، وأصيبت مراسلة الجزيرة مباشر شذا حنايشة بشظية رصاصة في الرأس.

صحة نفسية مغيّبة يتعرض الصحفي في فلسطين إلى ضغوط نفسية كبيرة، بحسب بدير، فهو الشاهد على وداع الأمهات لأولادهن، والشاهد على فقد الأطفال لأعينهم أو أطرافهم، والشاهد كذلك على بلاد «يأكلها» التوغل الإسرائيلي كل يوم و«مهما حاول الصحفي أن يكون حياديا سيظل ابن بلده وكل ما يحدث فيها ينعكس نفسيا عليه»، وإن كانت فرص التفريغ النفسي محدودة، إلا أنها -برأيه- ضرورية لضمان الاستمرارية.

يهرب بدير من الضغوط التي تنتج عن العمل الميداني في شمال الضفة من خلال خلق مساحة للترويح مع بقية زملائه في الميدان: «أحيانا نجتمع بعد تقديم نشرتنا الإخبارية، أذكرهم بموقف مضحك أو ألقي أمامهم طرفة معينة، المهم أُوجِد متسعا للترويح»، ذلك أن ضغط الأخبار في شمال الضفة كبير، ولا تكاد تخلو ليلة من اقتحام، وعليه فإن لم يستطع الصحفي أن يرفِّه عن نفسه أو يعزلها عن الضغوط «سيقتلونه نفسيا قبل أن يقتلوه جسديا، وهذا أخطر شيء».

حتى فكرة التنقل عبر مسافات بعيدة جغرافيا (الطرق الالتفافية) لتجنب الحواجز العسكرية، ينظر إليها بدير على أنها فرصة للترويح عن النفس، والتعرف إلى أناس جدد ومنطقة جديدة في البلاد «المهم لا أجعل الاحتلال يصل إلى هدفه بأن يجعلني أضجر بوصفي فلسطينيا أولا ثم صحفيا».

يعود بدير يوميا إلى منزله في طولكرم، يمنِّي نفسه بمجالسة ابنه ومتابعته في دراسته، أو الجلوس مع والدته أو الخروج مع أصدقائه، ولكن الوقت دائما مرهون بالهاتف ومتابعة



وقعت 3 حوادث على الأقل في أيلول/ سبتمبر، في جنين وطولكرم، أطلقت خلالها قوات الأمن الإسرائيلية الذخيرة الحية على الصحفيين أو مركباتهم أثناء تغطيتهم (جوران توماسيفيتش - رويترز).

الأحداث في الشمال، ولا سيما أن اقتحامات قوات الاحتلال للبلدات والمخيمات تحدث في الأوقات المسائية وقد يُدعى لتغطيتها في أي وقت «وهذه الاحتمالات والأحداث الطارئة تحرمك من كثير من الاستقرار».

صحافة خلف القضبان

تعرض الأطرش في بداية الحرب على غزة كغيره من صحفيي الضفة وناشطيها للاعتقال بحجة التحريض وإنتاج مواد إعلامية عن المقاومة الفلسطينية في الضفة الغربية: «قال لي المحقق حرفيا: انتظرنا يصير 7 أكتوبر عشان تصير إسرائيل بلا قانون، ونجيبك هون وندعس على راسك». أُفرج عنه بعد سبعة أشهر، أدرك فيها الأطرش مدى الرقابة التي يفرضها الاحتلال على الصحافة من خلال مراقبة أعمالهم وتوثيقها، «صرتُ أكثر حذرا، حتى وأنا على الهواء مباشرة أنتقي كلماتي حتى لا أعود إلى المعتقل مرة أخرى».

ومنذ السابع من أكتوبر، بلغ عدد حالات اعتقال الصحفيين التي وثَّقها نادي الأسير الفلسطيني ما مجموعه 112، تبقى منهم رهن الاعتقال 59، في الأراضي الفلسطينية بالضفة وغزة والقدس، منهم 6 صحفيات، و22 صحفيا من غزة، وما لا يقل عن 16 من الصحفيين الذين اعتقلهم الاحتلال محتجزون رهن الاعتقال الإداري.

وفي تعداد السجون لعام 2023، وثقت لجنة حماية الصحفيين سَجن السلطات الإسرائيلية 17 صحفيا فلسطينيا، وهو أعلى عدد من الاعتقالات في الأراضي الفلسطينية منذ أن بدأت اللجنة تعقب الصحفيين المسجونين عام 1992. وفي عام 2024، تجاوزت هذه الأرقام، لتصبح حملة القمع والاعتقالات بحق الصحفيين في ذلك العام الأولى من نوعها في الأراضي الفلسطينية، ما يشير

إلى تصعيد غير مسبوق في استهداف الصحافة.

يُرجِع مركز مدى سبب ارتفاع عدد الاعتقال والاحتجاز في أوساط الصحفيين إلى الحرب التي لا تزال متواصلة على قطاع غزة منذ السابع من تشرين الأول/ أكتوبر من العام 2023، والتي أدت في واحدة من تداعياتها إلى زيادة حدة قمع الحريات سواء في غزة أو الضفة رغم التباين والاختلاف النسبي في ذلك؛ ففي حين ازدادت على نحو غير مسبوق عمليات قتل الصحفيين في قطاع غزة، ارتفعت في المقابل عمليات الاعتقال للصحفيين في الضفة الغربية بهدف تكميم أفواههم ومنعهم من تأدية واجبهم المهني والإعلامي.

"

يتعرض الصحفي في فلسطين إلى ضغوط نفسية كبيرة فهو الشاهد على وداع الأمهات لأولادهن، والشاهد على فقد الأطفال لأعينهم أو أطرافهم، والشاهد كذلك على بلاد «يأكلها» التوغل الإسرائيلي كل يوم و«مهما حاول الصحفي أن يكون حياديا سيظل ابن بلده وكل ما يحدث فيها ينعكس نفسيا عليه».

"

وتفرض السلطات الإسرائيلية منذ السابع من أكتوبر إجراءات عقابية داخل سجونها بحق الأسرى الفلسطينيين وثّقتها المنظمة الحقوقية الإسرائيلية (بتسليم) تحت عنوان «أهلا بكم في الجحيم»؛ إذ رصدت المنظمة ارتكاب جنود الاحتلال جريمة التعذيب على نحو ممنهج ومتواصل وعلى نطاق واسع، وهو ما يؤكده الأطرش بتعرضه لأشكال عديدة من الإهانة والتنكيل والضرب وخلع الكتف.

مضايقات بكل الأشكال

سلطة الاحتلال ليست العائق الوحيد أمام صحفيي الضفة الغربية؛ إذ يشارك المستوطنون في الاعتداءات والتضييق على عمل الصحفيين. وعلى الرغم من أن الصحفي الفلسطيني يحذَر من الجندي الإسرائيلي، فإن حذره من المستوطنين يكون أكبر وأشد؛ نظرا لحيازتهم الأسلحة وعدم انضباطهم أو التزامهم بقواعد إطلاق النار، علاوة على إفلاتهم التام من العقاب. يقول أحد الصحفيين: «من الممكن أن أتحرك بسيارتي نحو منطقة يوجد فيها الجيش، وقد أتعرض للتنكيل من الجنود إلى حد معين، ولكن من المستحيل أن أتحرك نحو منطقة يوجد فيها مستوطنون».

ويتعمد المستوطنون التقاط الصور للصحفي ونشرها على مجموعاتهم الخاصة مع إضافة ملصق سلاح القناص، في تحريض مباشر على استهدافهم، ونتيجة لذلك جرى اعتقال عدد لا بأس به من الصحفيين منذ السابع من أكتوبر تلبية لرغبات المستوطنين، وفق الأطرش.

في 13 تشرين الأول/ أكتوبر الحالي تعرَّض بدير والمصوِّر المرافق له لهجوم من مستوطن في أثناء تغطيتهما فعاليات قطف الزيتون في قرية «رامين» بطولكرم، وحاول المستوطن كسر الكاميرا ومصادرتها عندما وثّقت اعتداءه على مزارع وطرده من أرضه، ليتدخل لاحقا أهالي القرية لحماية بدير ورفيقه ومساعدتهما على الانسحاب.

رغم العقبات المتعددة التي يواجهها الصحفي الفلسطيني من جهات مختلفة، تتضاءل الجهات المدافعة عنه سواء على الصعيد الفلسطيني أو العالمي. ويشير الأطرش إلى أن نقابة الصحفيين الفلسطينيين تكتفي بتوثيق الانتهاكات وأرشفتها من دون تأدية دور فعّال على الأرض، قائلا: «أنا بصفتي صحفيا فلسطينيا لم أشعر بوجود النقابة قبل 7 أكتوبر ولا بعده، ولا حتى خلال العملية العسكرية.»

ويرى الأطرش أن الحرب أظهرت «عجز» المنظمات الدولية والحقوقية المدافعة عن الصحافة، واصفا إياها بأنها مجرد «بالونات منفوخة مليئة بالشعارات»، بينما يؤكد الصحفي بدير أن الحرب «اجتاحت» كل القيم التي تعلموها عن الصحافة الدولية، مشيرا إلى أن «كل ما درسناه كان مجرد حبر على ورق، لأنه لم يمنع قتل الصحفيين أو يوفر لهم الحماية.»

مؤسسات في مرمى النيران

لم يكن الصحفيون وحدهم في دائرة الاستهداف والتضييق، بل شمل ذلك مؤسسات صحفية عديدة، عربية وفلسطينية، كان آخرها إغلاق مكتب قناة الجزيرة في مدينة رام الله بالضفة الغربية المحتلة يوم 22 أيلول/ سبتمبر، ولمدة 45 يوما؛ إذ حطّم الاحتلال الباب الخارجي للقناة وسلَّم العاملين أمر الإغلاق. وكان مكتب القناة في القدس قد أُغلق كذلك بتاريخ 5 أيار/ مايو، ووقّع وزير الاتصالات الإسرائيلي قرارا بمصادرة المعدات الخاصة بالقناة جميعها. وفي 11 أغسطس/ آب قررت حكومة الاحتلال إغلاق قناة «الميادين» اللبنانية وحظرها ومنع طواقمها من العمل.

جاءت هذه الإغلاقات تباعا بعد مصادقة الكنيست الإسرائيلي (البرلمان) على ما سمي قانون «منع مساس جهات أجنبية بأمن الدولة»، الذي يسمح بإغلاق وسائل إعلام بذريعة الإضرار بأمن الدولة.

كذلك اضطرت شركة «جي ميديا» الإعلامية الفلسطينية إلى إعلان توقّفها عن العمل في 16 أكتوبر/ تشرين الأول 2023، بعد أن وصفها الاحتلال بأنها «منظمة غير مشروعة» وسلَّمها قرارا بالإغلاق، علما أن طواقمها تعمل في الميدان بالضفة الغربية بلا مقر، بسبب إغلاق السلطة الفلسطينية مكتبها في رام الله قبل نحو عامين.

وقبل ذلك، أغلقت إسرائيل قنوات تلفزيونية فلسطينية وعربية غير حكومية، منها قناة «الأقصى» عام 2015، وقناة «فلسطين اليوم» عام 2016، وقناة «القدس» عام 2018، ودوهمت مكاتبها في الضفة ومكاتب الشركات التي تقدِّم خدمات لها.

يستمر محمَّد الأطرش، مراسل قناة الجزيرة، في التنقل بين البلدات والقرى بشمال الضفة الغربية، مؤمنا بأهمية رواية القصص عن أهلها، وأنسنة قضاياهم، ويرى في ذلك إحياءً للقضية وسببا لتفاعل الناس وتعاطفهم الصادق، على نقيض الاكتفاء بالأخبار المجردة من سياقاتها الإنسانية، التي جعلت كثيرا من الناس يعتادون الأرقام والأحداث رغم فداحتها، قائلا: «لا أحب أن أكون رقما، وما ينطبق علي ينطبق على غيري، إن استشهدت فأنا أحب أن يعرف الناس أني توجهت إلى هذا المكان من منطلق مسؤوليتي المهنية، ولدي أهل وأطفال أحبهم».

وإلى طولكرم يرجع خالد بدير، مراسل قناة الغد، كل مساء إلى بيته، يعلم أنه بقي سالما ليوم إضافي ليس بانتهاء التغطية أو انتهاء الاقتحام وانسحاب جيش الاحتلال، إنما برؤية ابنه ينزل الدرج مسرعا في استقباله؛ «أعلم حينئذ أني نجوت من الموت».



«كل يوم يعيش الصحفي هنا محطة مفصلية، كل يوم كل ثانية، كل خروج من المنزل محطة مفصلية، لأنه قد يعود وقد لا يعود، قد يصاب وقد يعتقل» (مأمون وزوز - غيتي).

كيف أصبحت منصات التواصل الاجتماعي منبرا للناجين من حرب الإبادة الجماعية بفلسطين؟

علا مرشود

رغم كل القيود التي تفرضها شركات التواصل الاجتماعي على المحتوى الفلسطيني، وجد الناجون والشهود على حرب الإبادة الجماعية «متنفسا» في الإعلام الرقمي لتوثيق ما عاشوه لزيادة وعي الجمهور وتخليد الذاكرة الجماعية.

في إحدى الليالي العنيفة على غزة، في منتصف الليل تحديدا، كان عبد الرحيم عروق يتحدث مع عائلته عبر الهاتف، غير مدرك أن تلك المحادثة ستكون الأخيرة. يروي: «كلمت أمي وإخوتي ساعة واحدة في الليل، تحدثنا وضحكنا، وبعدها نمت على وعد بأن أراهم بعد انتهاء الحرب، ولكن بعد ساعة واحدة قُصف بيتنا، ولم أكن أعلم مَن تبقى على قيد الحياة ممن رحل». شكلت الصدمة حكاية بداية مؤلمة من الفقدان؛ إذ استشهد معظم أفراد عائلته (والدته وإخوته وعائلاتهم).

عبد الرحيم عروق صحفي فلسطيني من غزة مقيم في تركيا، عاش تجربة مريرة خلال الحرب على غزة عندما قصف الاحتلال الإسرائيلي منزل عائلته، وعايشت عائلته أهوالا طوال فترة الحرب المستمرة حتى اللحظة، وانطلاقا من تلك التجربة القاسية، شعر بأهمية التوثيق للحفاظ على ذاكرة ما يحدث، فشارك في تأسيس بودكاست «شهادة» الذي يسلط الضوء على قصص الناجين من الإبادة الجماعية في غزة، ليكون صوتا لهم في مواجهة النسيان والتشويه المتعمد للحقيقة.

تعيد أحداث الإبادة الجماعية في غزة ذكرى النكبة إلى أذهاننا؛ حدثان متشابهان في إمعان الاحتلال في جرائم الحرب ودفع الناس إلى حركة نزوح قسري، إلا أن اختلاف الزمان وتطور تقنيات التوثيق أحدث

فرقا كبيرا في صدى الحدث وتأثيره على الرأي العام الدولي. هذا التحول الشاسع كان للإعلام الرقمي دور بارز فيه؛ إذ أصبح منبرا للناجين والشهود لتوثيق جرائم الاحتلال ونقلها للعالم فورا وعلى نحو فعّال؛ ليزيد من وعي الجمهور بما يجري على الأرض، الذي بات يطالب بوقف فوري للحرب.

في روايته الشهيرة «أعراس آمنة»، يسلط إبراهيم نصر الله الضوء على أهمية توثيق القصص والشهادات، ولا سيما أن الاحتلال يخوض حربا طاحنة لتزوير التاريخ وتحريفه، ثم ما يلبث أن يطرح سؤالا وجيها: «هل تعرف ما مصير الحكايات التي لا نكتبها؟ إنها تصبح ملكا لأعدائنا»، ولعل ما نراه في الإعلام الغربي يمثل حجة دامغة على ذلك.

يبدو أن الاحتلال الإسرائيلي أدرك بوضوح أهمية هذا الأمر، فخصص كثيرا من الوقت والجهد لتوثيق شهادات الناجين من المحرقة (الهولوكوست). ومنذ نحو مئة عام، عمل على استغلال ذكرى المحرقة لخدمة روايته وأهدافه، ولا يزال حتى اليوم يعقد المؤتمرات والندوات لاستذكار تلك الأحداث، وتوثيق قصصها وتحويلها إلى أفلام أو أعمال أدبية وفنية، مع الاستمرار في توظيفها بما يخدم مصالحه.

الشهادات الرقمية والذاكرة الحية

مرت أكثر من سبعة عقود على ذكرى النكبة، تلتها جهود متواصلة على مدار نحو عشرين عاما بهدف بناء ذاكرة شفوية توثق شهادات الناجين من المجازر التي ارتكبها الاحتلال الإسرائيلي، وتضمنت هذه الجهود توثيق قصص اللجوء والنزوح وغيرها من اللحظات المفصلية في تلك الحقبة. أصبحت هذه الشهادات اليوم جزءا من إرث ضخم، يضم مئات الآلاف من الروايات التي يمكن إحياؤها وإعادة توثيقها من خلال إنتاج أفلام وثائقية أو درامية.

يشكل التوثيق الرقمي شهادات حية يمكن الاستعانة بها في المحاكم الدولية لإدانة الاحتلال واتخاذ الإجراءات العقابية المناسبة ضده. حتى إن لم تستوفِ



تعيد أحداث الإبادة الجماعية في غزة ذكرى النكبة إلى أذهاننا: حدثان متشابهان في إمعان الاحتلال في جرائم الحرب ودفع الناس إلى حركة نزوح قسري (داود أبو الكاس - رويترز).

المعاييــر القانونيــة لاســتخدامها أدلـة، فإنهـا تبقـى جـزءا مهما من ســرديتنا الصادقــة.

أصبــح الإعلام الرقمــي منبــرا للناجيــن والشــهود لتوثيــق جرائــم الاحــتلال ونقلها للعالم فــورا وعلى نحــو فعّــال؛ ليزيــد مــن وعــي الجمهــور بمــا يجــري على الأرض، الــذي بــات يطالــب بوقــف فــوري للحــرب.

ولا يمكــن تجاهــل الــدور الــذي تلعبــه المؤسســات الحقوقيــة العالميــة، مثــل منظمــة الصحة العالميــة، والأمــم المتحــدة، والأونــروا، إلــى جانــب شــهادات الناجيــن الموثقــة رقميــا، في كشــف الجرائــم المروعــة التــي يرتكبهــا الاحــتلال الإســرائيلي. يمكــن قيــاس تأثيــر الشــهادات الرقميــة والقصــص الشــخصية المنتشــرة عبــر وســائل التواصــل الاجتماعــي مــن خلال أمثلــة بــارزة، مثــل الناشــطة بيســان عــودة التــي نالــت جائــزة عالميــة مرموقــة عــن أفلامهــا الوثائقيــة عــن غــزة. يُبــرز هــذا التكريــم القــوة التــي تمتلكهــا هــذه الشــهادات في التأثيــر على الــرأي العــام الدولــي.

ويــرى الدكتــور ســعيد أبــو مــعلا، رئيــس قســم الإعلام الرقمــي في الجامعــة الأمريكيــة بجنين، أن نشــر المحتــوى باللغــة الإنجليزيــة يزيــد مــن وصولــه ويعــزز تأثيــره على الــرأي العــام الغربــي، مــا يســهم في توجيــه الأنظــار نحــو القضيــة الفلســطينية على نحــو أكبــر.

ويعتقــد أبــو مــعلا أنّ مــن الضــروري فهــم طبيعــة الجمهــور الغربــي لتتــرك هــذه القصــص الأثر المرغــوب؛ إذ «يميــل إلــى التركيــز على البيانــات والأرقــام أكثــر مــن الخطــاب العاطفــي. وبرأيــي هــذا لا ينفــي حقيقــة أن المشــاهد البصريــة للدمــار المهــول في غــزة وصــور وفيديوهــات الضحايــا المؤلمــة قــادرة على إحــداث تأثيــر أكبــر مــن الكلمــات. وغالبــا مــا تكــون الصــور ذات تأثيــر أقــوى مــن الشــهادات الشــفهية التــي يســتعيد فيهــا الناجــي أحداثــا شــهدها؛ لأنهــا تنقــل حجــم الكارثــة بشــكل مباشــر وفــوري، مــا يجعلهــا تتــرك أثــرا عميقــا في نفــس المشــاهد. أمــا الشــهادات المســجلة أو المرويــة، فتكمــن أهميتهــا في التوثيــق والتأريــخ».

وعلى هــذا الأســاس، يمكــن أن نفهــم لــم يســتمر الناجــون في غــزة في ســرد تجاربهــم بأشــكال مختلفــة؛ لذلــك يدعــو ســعيد أبــو مــعلا الجهــات الفلســطينية المختصــة إلــى أرشــفة الشــهادات التــي تُشــارَك خوفــا مــن احتمــال حــذف جــزء كبيــر منهــا مســتقبلا

يشكل التوثيق الرقمي شهادات حية يمكن الاستعانة بها في المحاكم الدولية لإدانة الاحتلال واتخاذ الإجراءات العقابية المناسبة ضده. حتى إن لم تستوف المعايير القانونية، فإنها تبقى جزءا مهما من السردية الصادقة (محمد تركمانَ - رويترز).



من على منصات مثل الفيس بوك وإنستغرام بسبب سياستها التقييدية للمحتوى الفلسطيني.

يتحدث الدكتور أبو معلا عن الأثر الإيجابي الذي أتاحه الفضاء الرقمي للضحايا والناجين لمشاركة قصصهم وتجاربهم بالصوت والصورة، مؤكدا أن «ذلك ينقلهم من مجرد ضحايا مستضعفين يتلقون الظلم الواقع عليهم بصمت وسلبية، إلى شهود يروون حكايتهم ويدافعون عن وجودهم وكرامتهم».

ورغم كل التحديات التي تواجه هذه العملية، ولا سيما الطوق المفروض من المنصات الرقمية، فإن «المشكلة الحقيقية تكمن في أن البعض يضع ثقته كاملة في المؤسسات الحقوقية أو الجنائية الدولية، في حين أن الحرب مستمرة منذ سنة من دون أي نتائج ملموسة، وهذا يعكس الواقع المرير الذي تُطبَّق فيه القوانين غالبا على المستضعفين وليس على الأقوياء».

ويعدد أبو معلا كثيرا من المعوقات التي قد تواجه عملية تأريخ هذه الشهادات، ويشير إلى مجموعة من التحديات التي تواجه الناجين عند نقل قصصهم عبر منصات التواصل الاجتماعي، مسلطا الضوء على قضايا جوهرية تتطلب الانتباه والحذر:

التبلد العاطفي: مع تكرار المشاهد المؤلمة، يتبلد إحساس الجمهور تدريجيا؛ لذا يجب تقديم القصص بطرق تثير التفكير وتدفع الجمهور إلى الفعل بدلا من الاكتفاء بالمشاهدة.

سياسات منصات التواصل الاجتماعي: السياسات المتغيرة لهذه المنصات قد تؤدي إلى حذف المحتوى المتعلق بالحرب أو حجبه، ما يستدعي توثيق المحتوى على نحو دائم قبل أن يصبح محظورا أو غير متاح.

الاستمرار رغم الإحباط: في ظل استمرار الحرب، يواجه الناجون تحديا في الحفاظ على الأمل والدافع لمواصلة توثيق قصصهم، ما يجعل المثابرة أمرا بالغ الصعوبة.

”في روايته الشهيرة «أعراس آمنة»، يسلط إبراهيم نصر الله الضوء على أهمية توثيق القصص والشهادات، ولا سيما أن الاحتلال يخوض حربا طاحنة لتزوير التاريخ وتحريفه، ثم ما يلبث أن يطرح سؤالا وجيها: «هل تعرف ما مصير الحكايات التي لا نكتبها؟ إنها تصبح ملكا لأعدائنا»، ولعل ما نراه في الإعلام الغربي يمثل حجة دامغة على ذلك.“

حماية الخصوصية والكرامة: يجب الحفاظ على كرامة الضحايا وعدم انتهاك خصوصيتهم عند نقل القصص، لضمان الاحترام التام لهم ولتجاربهم.

القمع الرقمي: بعض منصات التواصل تفرض قيودا على المحتوى المتعلق بالحرب، ما يحد من انتشار الرسائل بفاعلية، ويستدعي البحث عن طرق مبتكرة للتغلب على هذه القيود.

هذه التحديات تعكس مدى تعقيد عملية نقل القصص في ظل القوانين والممارسات الرقمية الحالية، ما يتطلب من الناجين مواصلة التوثيق بعناية وحذر.

إلى جانب الحسابات الشخصية لمئات المواطنين الذين لا يزالون في غزة، ويُعدون «ناجين مؤقتين» في ظل استمرار العدوان والمجازر، تبرز المبادرات الإعلامية التي تمنح الناجين الذين غادروا غزة للعلاج أو هربا من الموت فرصة لمشاركة تجاربهم المؤلمة. ولعلّ من هذه المبادرات «شهادة بودكاست» على منصة يوتيوب، وبرنامج «فاهم قصدي»، اللذين يقدمان مساحة لسرد قصص النجاة وتسليط الضوء على معاناة الفلسطينيين بطرق مؤثرة وواقعية.

بهذا الشكل يصبح الإعلام الرقمي منبرا حيويا وصوتا للفلسطينيين لمواجهة حملات التشويه والتضليل، ويعطيهم المجال ليتحدثوا عن تجاربهم بصدق وواقعية، بعيدا عن تحكم المؤسسات الإعلامية التقليدية. ويمثل هذا التحول فرصة لإعادة تشكيل السرديات العالمية بشأن حرب الإبادة الجماعية، ويؤكد حقوق الناجين في التعبير عن قصصهم ومعاناتهم بوسائلهم الخاصة.

وستظل أصوات الناجين من الإبادة الجماعية في غزة شاهدة على الجرائم المرتكبة بحقهم، وتعد مشاركتها أمرا يكاد يكون واجبا لتعزيز الوعي العالمي بالقضية، وإبراز الحقائق التي قد تغيب عن كثيرين، وهذه خطوة لا يمكن تجاهلها من أجل إحداث التغيير المأمول.

الصحافة المحلية.. الملجأ الأخير للسودانيين أثناء الحرب

شعراوي محمد

بعدما استعر الصراع المسلح في السودان، واستهداف المؤسسات الإعلامية، برزت قيمة الصحافة الولائية (المحلية) كمصدر أساسي للأخبار لتخلق لها قاعدة جماهيرية كبيرة. الزميل شعراوي محمد، حاور صحفيين ومسؤولين يمثلون مؤسسات محلية لفهم أسباب نجاحها وآفاق تطورها.

كانت القنوات التلفزيونية نافذة يطل منها السودانيون على العالم، وشريانا ينقل نبض الشارع بكل أحداثه. ولكن، مع اندلاع شرارة الحرب، خفتت أنوار هذه الشاشات، واختفت الأصوات التي اعتاد المشاهد عليها مما اضطره إلى البحث عن قنوات محلية أخرى، تشبع رغبته في الإخبار.

توقفت معظم القنوات السودانية عن العمل، تاركة الملايين من المشاهدين السودانيين في ظلام دامس، عاجزين عن متابعة الأحداث وتلقي الأخبار المحلية. هذا الصمت المدوي جعل بعض المتابعين يلجؤون إلى القنوات الولائية (المحلية) التي تتناول في برامجها القضايا الداخلية لكل ولاية على حدة، فهي أصبحت ملاذا لهم رغم ضعف إمكاناتها.

هذا الواقع «المرير» يطرح تساؤلات عديدة بشأن مستقبل الإعلام في السودان، وهل ستتمكن القنوات التلفزيونية من استئناف عملها، وما هي طبيعة التحديات التي ستواجهها في المستقبل في ظل منافسة شديدة من المؤسسات الإعلامية المحلية؟

يقول المدير مجدي عبد العزيز، المدير العام لقناة الزرقاء، لمجلة الصحافة: «تأثرت معظم القنوات والإذاعات السودانية بسبب الحرب بعد أن فقدت مقارها وأدواتها الإنتاجية، ولكن سرعان ما عادت بعضها إلى استئناف العمل في ظل ظروف استثنائية بالغة التعقيد في السودان».

بدأت قنوات فضائية في ممارسة شكل من أشكال المقاومة لمعاودة عملها وإن كان ذلك على نحو محدود مثل قناة النيل الأزرق، والخرطوم، وسودانية 24، وغيرها، ويعتقد

مجدي أنّ «من الطبيعي أن تشهد القنوات الفضائية منافسة عالية من المحطات المحلية، في ظل رغبة المشاهد في متابعة البرامج الوطنية والقومية، وهذا ما نسعى إليه في قناة الزرقاء».

هذه الطفرة في القنوات الولائية التي تزامنت مع اشتداد الحرب، يفسرها أحمد عبد الله، رئيس قطاع البرامج والأخبار في تلفزيون ولاية الشمالية قائلا: «بعد أن اندلعت الحرب في السودان، غيرت قناة الشمالية العلامة التجارية الخاصة بها، إلى تلفزيون السودان القومي، بعد أن أغلق الأخير أبوابه بسبب الحرب في الخرطوم، واستمر هذا الوضع لمدة 40 يوما، حتى استأنف التلفزيون القومي البث من مدينة بورتسودان في الآونة الأخيرة، وكانت محطة الولاية الشمالية من ضمن المؤسسات الإعلامية القليلة، التي ظلت تعمل في بداية الحرب بعد أن توقفت معظم القنوات والإذاعات بسبب الصراع المسلح».

سعت القناة إلى إفراد مساحات واسعة جدا من البرامج الوطنية والقومية علاوة على الباقات المحلية التي تمثل هوية القناة الداخلية لـ «خلق توازن في الخارطة البرامجية حتى نستقطب الجمهور الواسع الذي كان يتابع القنوات الفضائية من الخرطوم قبل الحرب».

يضم السودان أكثر من ست قنوات وإذاعات ولائية (محلية)، تعمل معظمها يوميا على تغطية الأحداث الداخلية. من بين هذه القنوات، قناة «كسلا» التي تستهدف جمهور الولاية المحلي، ولكنها في الآونة الأخيرة بدأت تغطي معظم أحداث السودان عبر خريطة برامجية جديدة بعد اندلاع الحرب. إضافة إلى ذلك، هناك قنوات الشمالية والبحر الأحمر ونهر النيل، التي من المتوقع أن تبدأ بثها قريبا وفقا لمصادر المجلة؛ إذ ستخصص برامجها



يضم السودان أكثر من ست قنوات وإذاعات ولائية (محلية). تعمل معظمها يوميا على تغطية الأحداث الداخلية (فيسبوك).

لولاية نهر النيل. أما قناة الخضراء، التي كانت تعد القلب النابض لسكان ولاية الجزيرة، فقد توقفت عن البث فور دخول قوات الدعم السريع إلى مدينة ود مدني، حاضرة الولاية، بينما إذاعة النيل الأبيض، التي تتخذ من مدينة كوستي مقرا لها، تعاني من قلة الانتشار بسبب محدودية بثها، وكذلك إذاعات وسط وغرب دارفور التي تركز على تغطية الأحداث اليومية في الإقليم.

> تسعى القنوات الولائية إلى تغطية الأحداث المحلية، وتقديم البرامج التي تُبرز خصوصية الولايات، ورغم شح الإمكانات والموارد، فقد استطاعت أن تجد لها موطئ قدم عند الجمهور، وتخلق قاعدة كبيرة من المتابعين، بعد أن أصبحت هي اللاعب الأساسي في المضمار الإعلامي في السودان المتشكل بعد الحرب.

ترى مديرة البرامج في تلفزيون ولاية الخرطوم، رشا حرزاوي، في حديث لمجلة الصحافة، أن «عودة قناة الخرطوم للعمل من جديد بعد توقف دام لأكثر من عام ونصف، أدخل الطمأنينة للمشاهد، ولكن هذه العودة ليست كافية على نحو مناسب؛ بالنظر إلى عدم تغطية الأحداث التي تقع في مناطق سيطرة الدعم السريع في أجزاء من ولاية الخرطوم بسبب الانتهاكات والتضييق الذي يتعرض له الصحفيون هناك».

ولعل التحدي الأكبر، حسب حرزاوي، الذي يؤرق المسؤولين في التلفزيون هو تغطية الأحداث الجارية في البلاد،



«حتى نضمن للمشاهد خريطة برامجية تتناسب معه، ولكن مع فقدان الأجهزة المتطورة للمحطة نواجه معضلات حقيقية في التغطية، إضافة إلى هجرة معظم الكوادر التي كانت تعمل في المؤسسة قبل الحرب، إلى دول الجوار المختلفة. التنافس الذي تشهده القنوات والإذاعات السودانية هو إضافة للإعلام ويسهل عملية الوصول إلى الحقائق».



رغم شح الإمكانات والموارد، استطاعت القنوات الولائية أن تجد لها موطئ قدم عند الجمهور، وتخلق قاعدة كبيرة من المتابعين، بعد أن أصبحت هي اللاعب الأساسي في المضمار الإعلامي في السودان المتشكل بعد 15 أبريل/ نيسان من العام الماضي (تصوير: ديفيد ديجنر - غيتي).

ثمة أيضا إذاعات في السودان تحظى بنسبة استماع كبيرة، مثل «إذاعة أم درمان» التي تبث عبر نطاق أف أم من مدينة عطبرة، وكذلك «إذاعة بلادي» من مدينة بورتسودان، إضافة إلى «إذاعة البحر الأحمر» بورتسودان، والإذاعات الموجهة مثل إذاعة القوات المسلحة.

عمل تلفزيون كسلا الولائي على تغطية السيول والأمطار التي ضربت الولاية الشمالية وانهيار سد أربعات في البحر الأحمر، إضافة إلى الفيضانات التي شهدتها ولاية كسلا نفسها، والتحديات الأخرى المتمثلة في الأوبئة الناتجة عن هذه الفيضانات والأمطار.

يقول ممدوح هجو، المدير العام لتلفزيون ولاية كسلا، لمجلة الصحافة، إن القناة منذ اندلاع الحرب اختارت أن تكون نافذة قومية يرى منها كل السودانيين أنفسهم على اختلافهم، بخريطة برامجية لا تتخلى عن الأحداث المحلية للولاية.

عمل تلفزيون كسلا على تغطية السيول والأمطار التي ضربت الولاية الشمالية وانهيار سد أربعات في البحر الأحمر، إضافة إلى الفيضانات التي شهدتها ولاية كسلا نفسها، والتحديات الأخرى المتمثلة في الأوبئة الناتجة عن هذه الفيضانات والأمطار.

قبل الحرب، استفادت القنوات التلفزيونية من ميزانيات ضخمة، مثل تلفزيون السودان، وقناة النيل الأزرق، وقناة البلد، وقناة سودانية 24، وغيرها؛ فهي قنوات تستهدف جمهورا واسعا على مستوى البلد، وتقدم باقة متنوعة من البرامج التي تلبي مختلف الأذواق على عكس طبيعة القنوات الولائية (المحلية)، التي ظلت تمثل صوت الأقاليم وتحاول جاهدة إبراز التنوع الثقافي والاجتماعي. وبالموازاة مع ذلك، تسعى هذه القنوات إلى تغطية الأحداث المحلية، وتقديم البرامج التي تُبرز خصوصية الولاية. ورغم شح الإمكانات والموارد، فقد استطاعت أن تجد لها موطئ قدم عند الجمهور، وتخلق قاعدة كبيرة من المتابعين، بعد أن أصبحت هي اللاعب الأساسي في المضمار الإعلامي في السودان المتشكل بعد 15 أبريل/ نيسان من العام الماضي، ما يعزز فرصها المستقبلية أمام غياب القنوات المعروفة».

وفي سياق واقع مرير فرضته الحرب أفضى إلى إغلاق كثير من القنوات الإعلامية، يرى هيثم جنابي، مدير هيئة تلفزيون وإذاعة ولاية البحر الأحمر، في حديث لمجلة الصحافة، أن القناة استضافت بمقرها في مدينة بورتسودان، تلفزيون السودان الذي في الخرطوم.

استمرت قناة البحر الأحمر في العمل حتى ظهور تلفزيون السودان، ولكنها توقفت حاليا عن البث. ورغم الجهود المبذولة لاستئناف البث قريبا، فإن الإذاعة لا تزال تعمل باستمرار ولم تتأثر بهذا التوقف؛ إذ تتمتع بقاعدة واسعة من المستمعين والمتابعين.

يتحدث هيثم بإيجاز عن التحديات، مشيرا إلى أن الإذاعة تقدم مجموعة متنوعة من البرامج الفئوية والسياسية، إلا أن محدودية فترة البث (12 ساعة) تعد نقطة ضعف وهاجسا يسعون إلى تجاوزه في المستقبل القريب.

كذلك يرى نور الدين محمد، المدير العام لإذاعة غرب دارفور، أن الإذاعة أصبحت تنافس كثيرا من المؤسسات الإعلامية الأخرى، وذلك عبر المنصات الرقمية التي لجأت إليها بعد دخول قوات الدعم السريع لمدينة الجنينة، التي كانت تحتضن مقر الإذاعة قبل الحرب.

جاء الاعتماد على المنصات الرقمية للإذاعة بعد دخول قوات الدعم السريع إلى ولاية غرب دارفور التي تسببت في هجرة غالبية موظفي الإذاعة إلى دول الجوار ونزوح بعضهم إلى ولايات أخرى داخل السودان. ونتيجة لذلك، أصبح بث برامج الإذاعة يعتمد على مواقع التواصل الاجتماعي.

وقد لاقت هذه الخطوة إقبالا واسعا من المتابعين؛ إذ عززت مصداقية الإذاعة في نقل الأحداث وتغطية الأخبار باستمرار في السودان. ويرى نور الدين أن الخريطة البرامجية للإذاعة أصبحت ذات طابع قومي، نظرا لاهتمام عدد كبير من السودانيين داخل البلاد وخارجها، وكذلك من المهتمين

بالشأن المحلي في الدول الإقليمية المختلفة.

ورغم أن إذاعة غرب دارفور لا تدعم أي طرف في الصراع الحالي، فإنها تظل ملتزمة بدعم الحكومة السودانية وشرعيتها، وفقا للدستور وقانون العمل السوداني.

يشير نور الدين إلى أبرز التحديات التي تواجه الإذاعات، مثل الحاجة الملحة إلى التدريب وتأهيل الكوادر للاضطلاع بالمهام الإذاعية بفاعلية، إلى جانب ضرورة تحديث المؤسسات الإذاعية وتجديد أدوات العمل التي باتت قديمة وتحتاج إلى تغيير شامل؛ فالإذاعات تتكون من أقسام متكاملة، وأي خلل أو تأخير في أداء مهام إحداها يؤثر مباشرة على سير البث الإذاعي.

التنافس الذي فرضه الواقع بعد الحرب يعد ظاهرة إيجابية، تسهم في تطوير الإعلام في السودان، ومع ذلك فإن التحديات التي تواجه هذا السباق الإعلامي عديدة، وفي مقدمتها الصراع المسلح الدائر الآن، الذي يرسم صورة غير واضحة عن مستقبل وسائل الإعلام.



التنافس الذي فرضه الواقع بعد الحرب يعد ظاهرة إيجابية تسهم في تطوير الإعلام في السودان، ومع ذلك فإن التحديات كثيرة في مقدمتها الصراع المسلح الدائر الآن، الذي يرسم صورة غير واضحة عن مستقبل وسائل الإعلام (تصوير: عمر اردم - غيتي).

قتل واستهداف الصحفيين.. لماذا تفلت إسرائيل من العقاب؟

ناصر ثابت

لماذا تفلت إسرائيل من العقاب بعد قتلها لما يقارب 180 صحفيا؟ هل بسبب بطء مساطر وإجراءات المحاكم الدولية أم بسبب فشل العدالة في محاسبة الجناة؟ ألا يشجع هذا الإفلات على استهداف مزيد من الصحفيين وعائلاتهم ومقراتهم؟

أعلنت سلطات الاحتلال الإسرائيلي منذ هجوم السابع من أكتوبر/ تشرين الأول أنها في حالة حرب على فصائل المقاومة الفلسطينية في سابقة لم تعهدها الحالة الفلسطينية؛ إذ يعود آخر إعلان للحرب من قبل إسرائيل إلى حرب أكتوبر 1973. منذ ذلك الحين، تمارس إسرائيل جرائمها تحت يافطة العمليات العسكرية مرورا من لبنان إلى فلسطين. ونجد أن سلطات الاحتلال استخدمت الأدوات العسكرية الممكنة كافة وبإمداد مفتوح، وغطاء سياسي غربي يوفر لها الصيانة والحماية في وجه الإرادة الدولية منذ إعلان حالة الحرب في قطاع غزة، الأمر الذي أودى بحياة أكثر من 41 ألف شهيد، منهم أكثر من 16 ألف طفل وما يزيد على 11 ألف امرأة، إضافة إلى أكثر من 96 ألف مصاب منذ 7 أكتوبر/ تشرين الأول الماضي.

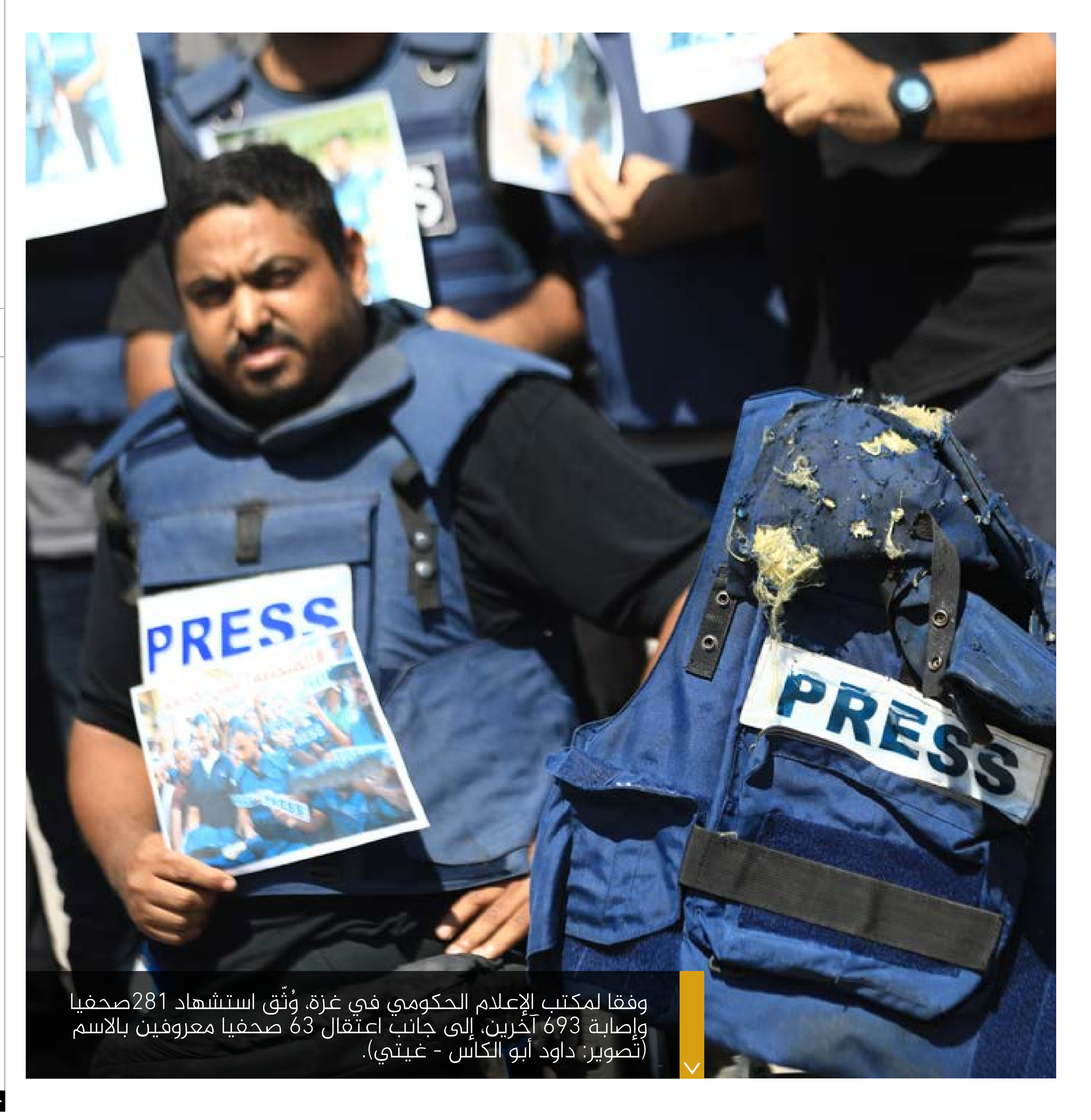
وقد كان القطاع الصحفي من جملة المستهدفين بنيران الحرب الإسرائيلية، متمثلا في الصحفيين والمعدات والمكاتب والأستوديوهات الصحفية. وبلغت خسائر هذا القطاع أرقاما كبيرة جدا وغير معهودة في سياق النزاعات المسلحة. بناء على ذلك، سيركز المقال على قراءة مرجعية الحماية القانونية المقررة للصحفيين في النزاعات المسلحة، وأنماط الانتهاكات الإسرائيلية وكيفية إفلات إسرائيل من العقاب.

عن الحماية القانونية

أسهمت التطورات المتلاحقة في المنظومة الدولية في

توفيــر حمايــة خاصــة بالنشــاط الصحفــي في النزاعــات المسـلحة؛ إذ تكتســب الصحافــة أهميتهــا مــن دورهــا في كشــف الحقائــق وإبــراز الانتهــاكات التــي تقــع بحــق المدنييــن الأبريــاء والعــزل. وانطلاقــا مــن هــذا الــدور المهــم، أســقَطَت اتفاقيــات القانــون الدولــي الإنســاني وصــفَ المدنــي على الصحفييــن، والأعيــان المدنيــة على المرافــق الصحفيــة، حتــى يكونــوا مشــمولين بالحماية العامــة التــي يتمتــع بهــا المدنيــون والأعيــان المدنيــة في ظــل النزاعــات المسـلحة في إطــار المادة «4» مــن اتفاقيــة جنيــف الرابعــة لعــام 1949 المختصــة بشــأن حمايــة الأشــخاص المدنيين في وقــت الحــرب، والممتــدة للحمايــة القادمــة مــن المادة «4» بشــأن المراســلين الحربييــن بوصفهــم مدنييــن في إطــار اتفاقيــة جنيــف الثالثــة بشــأن معاملة أسـرى الحـرب لعـام 1949.

شــهدت المنظومــة القانونيــة تطــورا ملحوظــا لتوفيــر حمايــة خاصــة للصحفييــن والنشــاط الصحفــي في أثنــاء النزاعــات المســلحة. وقــد تُوِّجــت هــذه الجهــود بالنجــاح خلال المؤتمــر الدبلوماســي المنعقــد في جنيف بيــن عامــي 1974 و1977، الــذي



وفقا لمكتب الإعلام الحكومي في غزة، وُثّق استشهاد 281صحفيا وإصابة 693 آخرين، إلى جانب اعتقال 63 صحفيا معروفين بالاسم (تصوير: داود أبو الكاس - غيتي).

سعى إلى تحديث البروتوكولات الملحقة باتفاقيات جنيف لعام 1949. كان من بين هذه التحديثات تطوير المادة «4/أ/4» من اتفاقية جنيف الثالثة بهدف تعزيز حماية الصحفيين، وتُرجمت هذه المساعي إلى إنجاز فعلي من خلال المادة «79» في البروتوكول الأول لاتفاقيات جنيف، التي خصصت عددا من الأحكام لضمان حماية الصحفيين تحت عنوان «تدابير حماية الصحفيين».

الممارسات الإسرائيلية في قطاع غزة منذ السابع من أكتوبر تُعد انتهاكات واضحة وجلية للقوانين والأنظمة الدولية كافة التي تنظم النزاعات المسلحة، والتي يجب على سلطات الاحتلال الإسرائيلي الالتزام بها، ويعكس ذلك النية الإسرائيلية لارتكاب أعمال ترقى إلى الإبادة الجماعية.

وقد ترسخت الحماية المقررة للصحفيين في عدد من القرارات الدولية الصادرة عن الهيئات الدولية التابعة للأمم المتحدة أو المستقلة، إلى جانب النقابات المحلية أو الدولية المتعلقة بالصحافة، ومنها قرار مجلس الأمن 2222 (2015)، الذي ينص على «ضرورة حماية الصحفيين والإعلاميين والأفراد المرتبطين بهم الذين يغطون حالات النزاع كمدنيين».

إلى جانب ذلك، فقد أشار القرار ذاته بوضوح وصراحة إلى أن «المعدات والمكاتب والأستوديوهات الإعلامية هي أصول مدنية وليست أصولا أو ممتلكات عسكرية ولا يجب أن تكون هدفا لهجمات أو أعمال انتقامية».

ولم تقف الجهود عند هذا الحد، بل إن هناك عددا من القرارات التي أشارت إلى ضرورة توفير حماية للصحفيين والأدوات الصحفية مثل قرار مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة رقم 33/2 المؤرخ في 29 أيلول/ سبتمبر 2016، وقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 70/162 المؤرخ في 17 كانون الأول/ ديسمبر 2015 بشأن سلامة الصحفيين ومسألة الإفلات من العقاب. إلى جانب قرار اليونسكو رقم 29 «إدانة العنف ضد الصحفيين» المؤرخ في 12 تشرين الثاني/ نوفمبر 1997، وإعلان ميديلين «تأمين سلامة الصحفيين ومكافحة الإفلات من العقاب»، الذي أعلنته اليونسكو في 4 أيار/مايو 2007، إضافة إلى قرارات أخرى...

أنماط الانتهاكات

مارست سلطات الاحتلال الإسرائيلي انتهاكات متعددة بحق الصحافة في الأراضي الفلسطينية المحتلة خلال الحرب على قطاع غزة التي بدأت في 7 أكتوبر 2023. لم تقتصر هذه الانتهاكات على الصحفيين فحسب، بل شملت أيضا استهداف مقارّهم وأدوات عملهم بهدف محاصرة الحقيقة وإسكاتها. وقد تعرض عدد من الصحفيين للاستهداف المباشر، ما أدى إلى سقوط شهداء وجرحى، إضافة إلى حالات اعتقال، وسط حملات تحريضية إسرائيلية واسعة. ووفقا لمكتب الإعلام الحكومي في غزة، فقد وُثّق استشهاد 174 صحفيا وإصابة 396 آخرين، إلى جانب اعتقال 36 صحفيا معروفين بالاسم.

اتخذت عمليات استهداف الصحفيين أشكالا متعددة، سواء خلال ممارسة نشاطهم الصحفي في الميدان، أو خلال عودتهم إلى بيوتهم بين ذويهم. وفي هذا الصدد، نجد أن آخر عمليات استهداف الصحفيين كانت لمصورَي شبكة الجزيرة فادي الوحيدي، وعلي العطار، فقد استُهدف الوحيدي بطلق ناري في العنق، دخل في إثره إلى العناية المركزة وتسبب في إصابته بالشلل الرباعي ودخوله في حالة غيبوبة تامة. أما العطار، فقد أصيب بطلق ناري في رأسه. كذلك فإن الصحفيين في قطاع غزة تعرضوا لعمليات الإخفاء القسري، بعد اعتقالهم من قبل جيش الاحتلال الإسرائيلي في الهجوم البري على غزة، ولا يزال يخفي كثيرا منهم قسرا.

وتجدر الإشارة إلى أن عمليات الاستهداف للحالة الصحفية لم تقف عند الصحفيين بأعينهم، بل امتدت إلى عوائل الصحفيين من أجل الضغط عليهم بالتهديد بالاستهداف أو بالاستهداف المباشر، وفي هذا الصدد استُشهد ذوو كثير من الصحفيين، ومنهم عدد واسع

من مراسلي شبكة الجزيرة وغيرها من المنصات الصحفية في قطاع غزة.

ومن ضمن أنماط الانتهاكات الإسرائيلية الأخرى التي وقعت على النشاط الصحفي في قطاع غزة، تدمير المقار الخاصة بالوكالات الصحفية سواء المحلية أو الدولية، إلى جانب تدمير عربات البث الفضائي،

علاوة على قطع الاتصالات والكهرباء لتعطيل العمل الصحفي في نقل الحقيقة التي تدور في قطاع غزة للعالم الخارجي. وفي الصدد ذاته، نجد أن سلطات الاحتلال الإسرائيلي قد أسهمت في إطار تعطيل العمل الصحفي على نحو متصاعد بالتعاون مع شركة ميتا.

هناك تقاعس واضح من قبل دول العالم في تفعيل أنظمتها القضائية الداخلية لمحاسبة مرتكبي الجرائم من الإسرائيليين، ما يعكس غيابا حقيقيا للإرادة المنفردة لدى تلك الدول في ملاحقة هذه الجرائم.



مصور الجزيرة الصحفي فادي الوحيدي، أصيب بشلل رباعي ودخل في غيبوبة بعد استهدافٍ مباشر من قبل الاحتلال الإسرائيلي (مواقع التواصل).

جريمة ولكن؟

إن الممارسات الإسرائيلية في قطاع غزة منذ السابع من أكتوبر تُعد انتهاكات واضحة وجلية للقوانين والأنظمة الدولية كافة التي تنظم النزاعات المسلحة، والتي يجب على سلطات الاحتلال الإسرائيلي الالتزام بها، ويعكس ذلك النية الإسرائيلية لارتكاب أعمال ترقى إلى الإبادة الجماعية بحق سكان غزة، سواء على المستوى الأمني أو السياسي.

ويُمكن مُساءلة سلطات الاحتلال الإسرائيلي على صعيدين؛ الأول يتمثل في المسؤولية الجنائية الفردية أمام المحكمة الجنائية الدولية، والآخر يتمثل في كيانها بصفتها دولة عضوا في هيئة الأمم المتحدة أمام محكمة العدل الدولية. وعليه، فإنه على صعيد الملاحقة عن المسؤولية الجنائية الفردية، فإنه يُمكن ملاحقة الإسرائيليين سواء أكانوا أفرادا أو قادة أمام الجنائية الدولية عن طيف واسع من الانتهاكات؛ أولها جرائم استهداف الصحفيين في إطار جرائم الحرب بوصفها انتهاكات خطِرة للقوانين والأعراف السارية على المنازعات الدولية المسلحة، وأيضا يمكن ملاحقتهم عن ارتكاب جرائم بحق الإنسانية بحكم أن عمليات الاستهداف أتت في إطار هجوم واسع النطاق وممنهجي موجه لمجموعة من السكان المدنيين «الصحفيين». إلى جانب ذلك، يمكن مساءلة إسرائيل عن انتهاكاتها بصفتها دولة أمام محكمة العدل الدولية بموجب مخالفتها لقواعد القانون الدولي وأحكام النظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية الذي يوفر الاختصاص للمحكمة بموجب أحكام المادة «36».

> يمكن ملاحقة الإسرائيليين سواء أكانوا أفرادا أو قادة أمام الجنائية الدولية عن طيف واسع من الانتهاكات؛ أولها جرائم استهداف الصحفيين في إطار جرائم الحرب بوصفها انتهاكات خطِرة للقوانين والأعراف السارية على المنازعات الدولية المسلحة.

لملاحقة إسرائيل عن الجرائم المرتكبة، سواء على مستوى المسؤولية الجنائية الدولية أو بصفتها دولة، يجب الإشارة إلى أن السلطة الفلسطينية، التي تتمتع بعضوية في الجمعية العامة للمحكمة الجنائية الدولية منذ 2018، قد قبلت اختصاص المحكمة عبر إعلان رسمي في 2015. وفي عام 2021، أعلنت المدعية العامة السابقة للمحكمة فتح تحقيق في الجرائم الإسرائيلية، ولكن هذا التحقيق لم يُفعّل حتى الآن. وآخر الإجراءات المتخذة في هذا الشأن كانت تقديم مكتب المدعي العام طلبات اعتقال إلى الدائرة التمهيدية الأولى، من دون صدور مذكرات اعتقال حتى لحظة إعداد هذه المقالة.

أما بشأن المسؤولية الدولية لإسرائيل بصفتها دولة عضوا في الأمم المتحدة، ولا سيما فيما يتعلق بانتهاك حماية الصحفيين، فإن تفعيل اختصاص محكمة العدل الدولية يتطلب تقديم دعوى من دولة عضو في الأمم المتحدة. هذا الإجراء سيسمح للمحكمة بالنظر في الانتهاكات التي ارتكبتها إسرائيل بحق القانون الدولي. تجدر الإشارة إلى أن هناك قضية مقدمة من جنوب أفريقيا للنظر في الجرائم الإسرائيلية بدعوى ارتكاب الإبادة الجماعية.

الإفلات من العقاب

شكل الدعم الغربي منقطع النظير والقائم على السردية الإسرائيلية الداعية لاستباحة الدم الفلسطيني، إلى جانب الغطاء الأمني والسياسي على الصعيد الدولي، طوق النجاة لإفلات سلطات الاحتلال الإسرائيلي من العقاب كيانا وأفرادا. تصدرت الولايات المتحدة الأمريكية المشهد في تمكين سلطات الاحتلال الإسرائيلي من تحدي الإرادة الدولية الداعية إلى وقف حرب الإبادة على قطاع غزة، إلى جوار الموقفين الألماني والإنجليزي. لقد سمح الدعم الغربي لسلطات الاحتلال الإسرائيلي بالإمعان في استهداف الفلسطينيين والصحفيين منهم، وعطلت الولايات المتحدة مرارا وتكرارا القرارات الدولية، ولا سيما باستخدامها للفيتو في مجلس الأمن في وجه القرارات الداعية إلى وقف حرب الإبادة الجماعية.

كذلك تمددت العقوبات الغربية لتشمل تهديد الأجسام الدولية والفاعلين فيها عبر تجميد الحسابات المالية أو المنع من السفر، وخصوصا ما حدث مع طاقم المحكمة الجنائية الدولية، الأمر الذي عطلها لأكثر من عام حتى هذه اللحظة عن استصدار قرار بإلقاء القبض على أعضاء القيادة الإسرائيلية وفي مقدمتهم رئيس الوزراء ووزير دفاعه. يضاف إلى ذلك تعطيل قدرة المحكمة على مباشرة إجرائها بالتحقيق في الجرائم المرتكبة داخل قطاع غزة، ومنها الجرائم المرتكبة بحق الصحفيين والمقارّ الصحفية.

لا بد من التنويه إلى أن الإجراءات القضائية الدولية تستغرق وقتا طويلا؛ إذ يمكن أن يمتد النظر في الدعوى سنوات عديدة، فضلا عن الضغوط المستمرة التي تؤدي إلى تعطيل الإجراءات القانونية العاجلة، مثل إصدار أوامر إلقاء القبض، أو وقف العمليات العسكرية، أو التوقف عن استهداف المدنيين والمرافق المدنية. علاوة على ذلك، هناك تقاعس واضح من قبل دول العالم في تفعيل أنظمتها القضائية الداخلية لمحاسبة مرتكبي الجرائم من الإسرائيليين، ما يعكس غيابا حقيقيا للإرادة المنفردة لدى تلك الدول في ملاحقة هذه الجرائم.

الخاتمة

إن الحرب الدموية التي أطلقتها سلطات الاحتلال الإسرائيلي على قطاع غزة خلفت نتائج صعبة القياس على صعيد الخسائر في المدنيين أو حتى الأعيان المدنية وغيرها من مظاهر الحياة؛ فقد كان من جملة هذه الخسائر ما تعرض له القطاع الصحفي على صعيد العاملين فيه أو أصوله الصحفية رغم الحماية التي أقرتها القواعد القانونية والقرارات الدولية. وقد أسهمت عدة عوامل في الإفلات المستمر لسلطات الاحتلال الإسرائيلي على المستويين السياسي والأمني من العقاب، ولا يزال هذا الإفلات قائما نظرا للغطاء الغربي على قاعدة تحدي الإرادة الدولية من خلال تشكيل غطاء عسكري وسياسي لحرب الإبادة الجماعية التي تشنها إسرائيل.



لم تقف عمليات الاستهداف عند الصحفيين فقط، بل امتدت إلى عوائلهم من أجل الضغط عليهم (تصوير: أشرف أبو عمرة - غيتي).

عمر الحاج.. مذكرات مراسل الجزيرة في سجون «داعش»

محمد أحداد

بين زمن الاعتقال وزمن الكتابة ست سنوات تقريبا، لكن عمر الحاج يحتفظ بذاكرة حية غنية بالتفاصيل عن تجربة الاعتقال في سجون تنظيم الدولة الإسلامية (المعروفة بداعش). «أسير الوالي.. مذكرات مراسل الجزيرة في سجون تنظيم الدولة الإسلامية»، ليس سيرة ذاتية بالمعنى التقليدي، بل كتاب يجمع بين السيرة الغيرية والأفق المعرفي والسرد القصصي.

يقف «أبو عمر» عند الحاجز الأمني مشحونا بتمرد الشباب واثقا من أن «الكمبيوتر المشؤوم» الذي يحمله معه لن يشتغل حتى ولو «مسه روح من الجن»، ولكنه فجأة وضد كل قوانين العلم ومنطق التكنولوجيا، اشتغل، لتبدأ رحلة «مئة يوم من العزلة» في سجون «تنظيم الدولة الإسلامية».

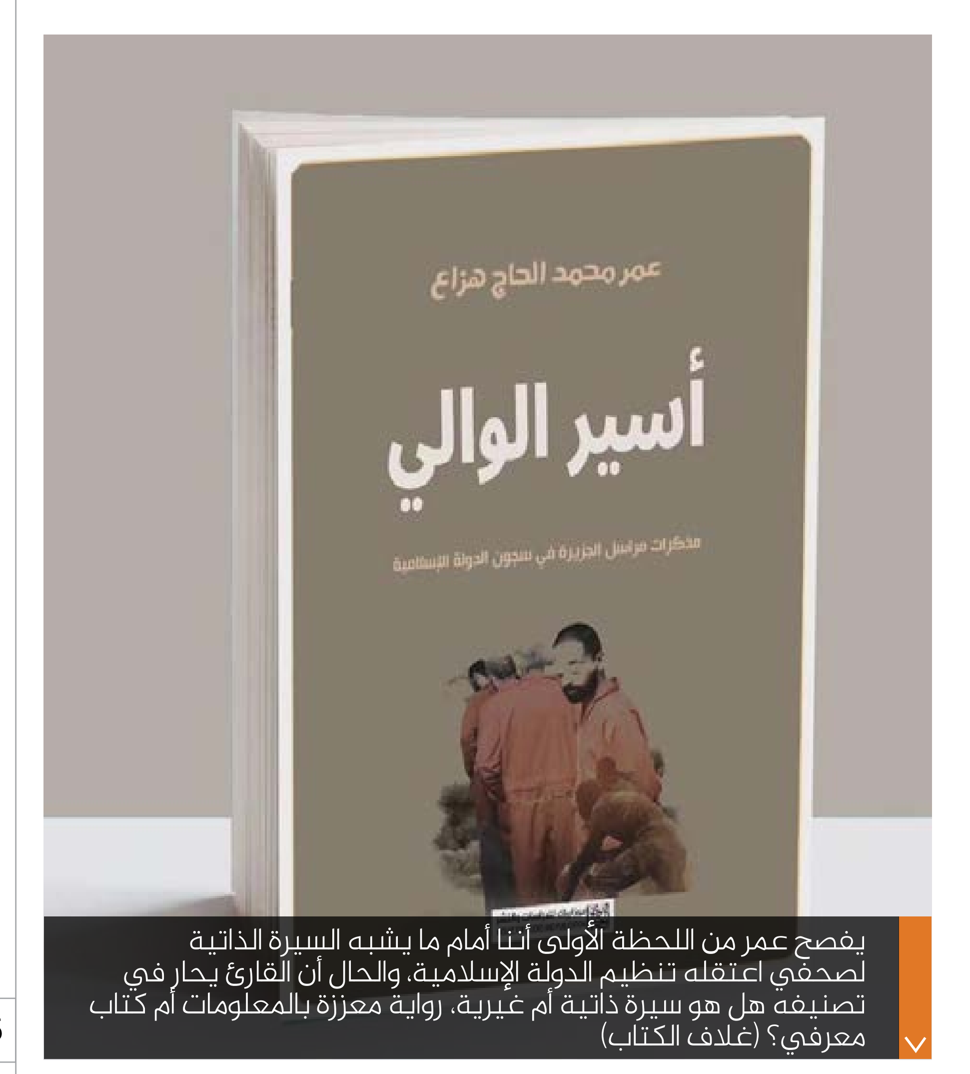
تبدأ الرحلة من دير الزور السورية في اتجاه غازي عنتاب في تركيا، وكل ما يعرفه القارئ، إضافة إلى بعض التفاصيل عن مناطق سيطرة تنظيم الدولة الإسلامية، هو أن أربعة شباب مزهوين بأنفسهم، (أو هكذا نحس على الأقل) يركبون حافلة تتسع لـ 14 شخصا، ثم يوقفهم حاجز تابع لـ«تنظيم الدولة الإسلامية» ويفتش عناصر التنظيم حقائبهم تفتيشا دقيقا ليعثروا على حاسوب اعتقد صاحبه أنه أفرغ شحنه وكل المحتويات التي يمكن أن تلمح إلى هويته.

لم يكن صاحب الحاسوب سوى عمر الحاج، مراسل الجزيرة بسوريا، بعد أن طلب منه أبو منصور الأسترالي (المسؤول عن الحاجز الأمني) التثبت من ادعاءاته بأنه ذاهب لإصلاحه. يحكي الحاج بلغة لا تخلو من ندم: «لقد كان الخطأ الأكبر هو اصطحاب الحاسوب وجهاز الإنترنت، وهو الأمر الذي أجبرت عليه منذ البداية، ولولاهما ربما كنت قد اعتقلت. إن لم يكن ذلك، لما كنت أنت، أيها القارئ الكريم، تقرأ هذه الكلمات! ولكن الله إذا أراد شيئا هيأ له أسبابه، ولله الحمد في الأولى والآخرة.»

سيرة ذاتية أم كتاب معرفي؟

يفصح عمر من اللحظة الأولى أننا أمام ما يشبه السيرة الذاتية لصحفي اعتقله تنظيم الدولة الإسلامية، والحال أن القارئ يحار في تصنيفه هل

هو سيرة ذاتية أم غيرية، رواية معززة بالمعلومات أم كتاب معرفي؟ ذلك أن الكاتب، وهو يسرد ما جرى له خلال مئة يوم، يذكر بسياقات تأسيس الدولة الإسلامية ومناطق نفوذها وصراعاتها السياسية والعقائدية مع الفصائل الأخرى بشكل لا يمكن أن تناقشه كثير من الكتب الأكاديمية، كذلك يرسم بورتريهات -لا تفتقر إلى الكوميديا السوداء- لشخصيات قيادية في التنظيم، والفصائل المنافسة، والنظام السوري... يحدث ذلك، في قالب سردي أقرب إلى الرواية متحرر من الكتابة التقريرية الجامدة.



يفصح عمر من اللحظة الأولى أننا أمام ما يشبه السيرة الذاتية لصحفي اعتقله تنظيم الدولة الإسلامية، والحال أن القارئ يحار في تصنيفه هل هو سيرة ذاتية أم غيرية، رواية معززة بالمعلومات أم كتاب معرفي؟ (غلاف الكتاب)

لا ينهج عمر الحاج الأسلوب التقليدي لكتب الصحفيين أو الكتاب الغربيين الذين غطوا أحداثا كبرى في الشرق الأوسط بإضفاء مسحة سردية عاطفية على الشخصيات وشرح تعقيدات السياسة والجغرافيا بمنظور استشراقي وتبسيط مضلل. لا نكاد نعثر على فقرة واحدة ليست مرتبطة بسياق أو مدعومة بخلفية تاريخية أو متبوعة بشرح وافٍ عن جذورها، إما اكتسبها الصحفي من تجربته الميدانية الطويلة وإما من شبكة مصادره أو من «كنز المعلومات الجديد»: رفاق السجن.

هذه ميزة الكتاب الأساسية، نلاحظ مثلا أن الكاتب يحدد الفروق الدقيقة بين الأنصار والمهاجرين ومناصبهم القيادية في التنظيم، وجنسياتهم، وميولهم، ونوعية الأسلحة التي يستعملونها ومصدرها، كذلك ساعدته تجربة السجن على التعرف إلى كثير من القصص التي لا نعرف عنها الشيء الكثير: الدسائس والصراعات والبناء الهرمي والتجسس وطبيعة النقاشات داخل التنظيم ومناطق سيطرتهم كذلك.

يبدو الكاتب واعيا بأن الحكي عن تجربته في «سجون الوالي» لا ينفصل عن تثقيف القارئ؛ لأننا أمام تجربة يتشابك فيها الديني بالسياسي ومصالح الدول الكبرى والأهواء الشخصية. يكتب عمر الحاج فيما يشبه التنبيه: «وقبل الشروع في سرد ما عشته يجب أن أحرر بعض المصطلحات هنا:

الإخوة: يقصد بهم عناصر التنظيم الذين سجنوا لاقترافهم جنحة أو خطأ ما. التعزير: هو المصطلح الخاص بإنزال العقوبة بالمذنبين. العوام: هم كل من ليسوا من عناصر الدولة. الاحتطاب: مصطلح يطلق على عناصر الدولة الذين قرروا، من دون الرجوع إلى قادتهم، الإغارة على أحد عناصر الجيش الحر أو النصرة أو أي مخالف للدولة، فقتلوا وسلبوا من المتاع أو المال أو السلاح فباعوه وأخذوه لأنفسهم. الأنصار: هم عناصر الدولة من السوريين. المهاجرون: هم عناصر التنظيم من غير السوريين. المبايعون: هم أشخاص مدنيون غير مقاتلين، ولكنّ ولاءهم للدولة. المناصرون: هم أشخاص

مدنيون لم يبايعوا الدولة ولكنهم تعهدوا بنصرتها وعدم العمل ضدها وضد عناصرها ومنهم من كان يعمل في

لا ينهج عمر الحاج الأسلوب التقليدي لكتب الصحفيين أو الكتاب الغربيين الذين غطوا أحداثا كبرى في الشرق الأوسط بإضفاء مسحة سردية عاطفية على الشخصيات وشرح تعقيدات السياسة والجغرافيا بمنظور استشراقي وتبسيط مضلل.

مؤسساتها الإغاثية أو المدنية كالجباية والكهرباء وغيرها...».

الغاية من إيراد هذه المعطيات لم تكن من باب الاستعراض المعرفي، بل لتوجيه القارئ من البداية إلى حساسية استخدام المصطلحات والخلفيات، وكان الكاتب نفسه ضحيتها في أثناء فصول التحقيق.



في رحلة انتقاله بين سجون «تنظيم الدولة الإسلامية» من دون توجيه تهمة واضحة سوى أنه ينتمي «لهؤلاء العملاء الذين تلقوا دورات تدريبية من جهات أجنبية والخارجين عن الملة»، تعرف عمر الحاج على شخصيات من كل الأقطار، وكان شاهدا على نهايات تراجيدية لرفاق السجن مثلما وقع مع إلياس وعبد الرحمن.

لا تهمنا قصص هذه الشخصيات، ولكن ما يهمنا هو أن عمر الحاج لا يتخلى عن حسه الصحفي الملقح أحيانا بأسلوب روائي وغير مطمئن للبطولات الشخصية مشككا في روايات السجناء (على ذمة الراوي، كما قال... إلخ)، ويهمنا كذلك، أن نفهم على وجه التحديد لم خصص جزءا كبيرا من كتابه للحديث عن «الآخرين»؟ هل رأى أن هؤلاء السجناء الذين تقاسم معهم قسوة الغرف المظلمة و«الحساسية المريرة» يشكلون عينة مهمة لفهم التنظيم من الداخل، أم يضيء على محنة فردية بصيغة الجمع ولا سيما أنه ترك وراءه العشرات ممن يعيشون تحت رحمة «الوالي»؟

الراجح أن عمر، وإن سلمنا أنه يسدد «الدين» العاطفي لبعض رفاقه على الأقل، فإن هاجسه كان معرفيا بحتا يندرج ضمن البحث عن سياق مؤطر لتجربته؛ ذلك أن التفاصيل



واجه عمر الحاج في سجون داعش صنوفا من التعذيب أقساها الإيهام بالعفو (أحمد سيك - غيتي).

لا نكاد نعثر على فقرة واحدة ليست مرتبطة بسياق أو مدعومة بخلفية تاريخية أو متبوعة بشرح وافٍ عن جذورها، إما اكتسبها الصحفي من تجربته الميدانية الطويلة وإما من شبكة مصادره أو من «كنز المعلومات الجديد»: رفاق السجن.

المروية تتعلق بسيرتهم وانتماءاتهم السابقة وعلاقتهم بالتنظيم وخلافاتهم الجوهرية دينيا وعقائديا وسياسيا.

هكذا نقرأ -على سبيل المثال- عن سيرة أبو عبد الرحمن أنه «أوقف قبلي بيومين أو يزيد وكان كما يقول غيلة وغدرا من المدعين هؤلاء؛ يقصد بهم عناصر تنظيم الدولة. لم يكن أبو عبد الرحمن من الإخوة، أي إنه لم يكن من عناصر التنظيم لا المبايعين ولا المناصرين حتى، بل كان فكره معارضا لفكرهم. أما عن عدم تذمره ذلك فهو عائد إلى إمضائه سنوات في السجن، فأبو عبد الرحمن المنبجي هذا لم يكن قد مضى على خروجه من سجن الحائر في السعودية إلا بضعة أشهر فكيف انتهى به المطاف هنا؟»

هـذا الحـس الصحفـي لعمـر الحــاج نجـده كثيـرا في ثنايـا الكتـاب؛ فهـا هـو يصـف رحلتـه إلــى السـجن الــذي لــم يعرفــه حتــى بعــد خروجــه: «وصلنــا بعـد ذلـك إلـى مـكان ما أسـتطيع القـول إنـه ضمـن تجمـع للأبنيـة، ويســعني القــول أيضــا إنــه كان مكانــا غايــة في الأهميــة، أمــا الاســتنتاج الأول فهــو لأننــا انتبهنــا أنــه اســتوقفنا أكثــر مــن مـرة على حواجـز وبوابـات وكانـت تضطـر السـيارة فيهـا للانعطـاف يمينــا ويســارا وببــطء».

تعـرض عمـر الحــاج لصنــوف مختلفـة مـن التعذيـب النفسـي والجسـدي في أثنــاء «إقامتــه» فـي سـجون تنظيـم الدولـة الإسلاميــة، أقســـاها الإيهــام بالعفــو مــن «الوالــي». يتحــول التعذيــب واللعــب على الأعصاب



بعد مئة يوم كانت أشبه بمئة عام، وبعد تجارب مؤلمة، أدرك عمر أن المشاعر الشخصية غير المنضبطة لصحفي قد تكون خطرا مميتا» (شترستوك).

إلـى مونولـوغ (حـوار داخلـي) ضمـن سـيرة البـوح، مدفوعـا بإحساس استمراء حياة السجن ونسـج علاقـات تـروي فضولـه الصحفـي عـن تنظيـم الدولـة، فينسـى قضيتـه الأساسـية: الاعتقـال القاسـي في غياهـب السـجون. كان مسـكونا بمتلازمـة اسـتكهولم حيـث يحتـرم الضحية جلاده، بينمـا هـو في الأخيـر ضحيـة قمـع شـديد.

> تفـوق عمـر في استكشـاف مجـالات الخطـأ في تجربتـه المهنيـة التـي كادت تكلفـه حياتـه. قـد تبـدو في بعـض الأحيـان نصائـح السلامـة المهنيـة بسـيطة وبدهيـة، بيد أن تجربتـه التـي يحكيهـا دون أي رقابـة شـخصية تبيـن إلـى أي حـد قـد يصبـح خطـأ واحـد أو حماس جـارف سـببا في هلاكك، ولا سـيما إذا كان «سـوء حظـك ليسـت فيـه ثغـرة واحـدة».

يسـتعيد هـذا الصراع المرير لعمر الحـاج مـا كتبـه الكاتـب المغربـي عبـد القـادر الشـاوي عـن تجربتـه في السـجن: «اكتشـفت، قبـل التعذيـب، أن أسـئلة المحققيـن شـكلية سـطحية مبهمـة، بعضها تافـه لا يسـتطيعون الوصـول بـه إلـى أي حقيقـة مطلوبـة. بالقـدر الـذي كنـا نعرف نحـن. فهمت أن القصـد، وخصوصـا بعـد أن تناهـى إلـى سـمعي صـراخ حـاد فيـه تـوسلات وأدعيـة ونحيـب ملأ المـكان بالقسـوة، هـو الوصـول إلـى الغايـة المنتظـرة بأسـرع طريقـة ممكنـة، ولـم تكـن تلـك الطريقـة الممكنـة، إلا التعذيـب الـذي تنجلـي بـه الحقائـق في غـرف الجلاديـن» (1).

مـن الناحيـة المهنيـة يناقـش الكتـاب قضيـة غايـة في الأهميـة تتعلـق بالسـلامة المهنيـة والحمـاس الـذي قـد يصـل إلـى درجـة التهـور في مناطـق الحرب. يعتـرف الحـاج في الكتـاب (ويفعـل ذلـك مـرات بمـرارة) أن المئـة يـوم التـي قضاهـا متنـقلا بيـن سـجون تنظيـم الدولـة الإسلاميـة، لـم تكـن لتحصـل لـولا قـرار «مجانـي» يطالبـه بالعـودة بالأجهـزة إلـى تركيـا.

ورغـم مـرور سـنوات على حـدث الاعتقـال، فلا يـزال «أبـو عمـر» (وهـي كنيتـه داخـل سـجون التنظيـم» حاقـدا على المغفـل الـذي أصـر على أن أصطحـب معي كل الأجهـزة وعلى شـركة آبـل المصنعـة للحاسـب مـرددا في نفسـي أكان على بضاعتكـم أن تكـون بهـذه الجـودة؟».

والحـال أن هـذا الاعتـراف قـد يشـكل أحـد العناصـر الأساسـية لفصـول الكتـاب، ومـن غيـره سـتكون الشـهادة ناقصـة ومبتـورة، في حيـن يتعلـق الأمـر بالنسـبة لعمـر بمسـألة حيـاة أو مـوت، وقـد كان يفصلـه عـن حبـل المشـنقة مـزاج الوالـي أو أبحاثـه التـي أنصفـت «صحفـي الجزيـرة».

تفـوق عمـر مـرة أخـرى في استكشـاف مجـالات الخطـأ في تجربتـه المهنيـة التـي كادت تكلفـه حياتـه، دون طهرانيـة التـي نعثـر عليهـا عـادة في السـير الذاتيـة. قـد تبـدو في بعـض الأحيـان نصائـح السلامـة المهنيـة بسـيطة وبدهيـة، بيـد أن تجربتـه التـي يحكيهـا دون أي رقابـة شـخصية تبيـن إلـى أي حد قـد يصبـح خطـأ واحـد أو حماس جارف سـببا في هلاكك، ولا سـيما إذا كان «سـوء حظـك ليسـت فيـه ثغـرة واحـدة».

في الكتـاب لا يوجـد تطـور خطي لحبكـة واحـدة، ولـو أن الكاتـب احتـرم التسلسـل الكرونولوجـي للأحـداث مـن يـوم اعتقالـه إلـى لحظـة الإفـراج عنـه والنهايـة الروائيـة المشـوقة، إنمـا سلسـلة كاملـة مـن التقاطعـات السـردية؛ إذ يتـم تطعيـم الموضوعـات الثانويـة، وذكريـات الماضـي، والاسـتطرادات، ولحظـات التسـاؤل بشـأن التجـارب القاسـية التـي واجههـا. وبعـد مئـة يـوم كانـت أشـبه بمئـة عـام، وبعـد تجـارب مؤلمـة، أدرك عمـر أن المشـاعر الشـخصية غيـر المنضبطـة لصحفـي قـد تكـون خطـرا مميتا.

المراجع

1) حوار مع عبد القادر الشاوي: https://tinyurl.com/32pw8ypm

التعليق الوصفي السمعي للمكفوفين.. «لا تهمنا معارفك»!

هُمام كدر

كيف تجعل المكفوفين يعيشون التجربة الحية لمباريات كأس العالم؟ وهل من الكافي أن يكون المعلق الوصفي للمكفوفين يمتلك معارف كثيرة؟ الزميل همام كدر، الإعلامي بقنوات بي إن سبورتس، الذي عاش هذه التجربة في كأسي العرب والعالم بعد دورات مكثفة، يروي قصة فريدة بدأت بشغف شخصي وانتهت بتحد مهني.

«سيكون صوتُ كل واحد منكم عينا للمكفوف ونظرا لضعيف البصر، من خلالكم لن يرى المباراة فقط، بل يشعر بها ويسمع صوتها؛ فللمباراة صوت، وأنتم من سينقله».

كانت تلك أولى عبارات مدرب التعليق الإنجليزي آلان مارش خلال لقائه الأول بنا بوصفنا متدربين على التعليق الوصفي السمعي للمكفوفين وضِعاف البصر لتجهيزنا وتدريبنا لتقديم هذه الخدمة الأولى من نوعها باللغة العربية في تاريخ بطولات الاتحاد الدولي لكرة القدم (FIFA)، ضمن فعاليات كأس العرب 2021 في قطر.

«مونديال العرب» كما أصبح يطلق عليه، بطولة أعادت قطر إحياءها بعد غياب دام 9 سنوات وبنسخة هي الأكثر من حيث عدد المنتخبات المشاركة؛ فقد لعبَت ابتداء من التصفيات المنتخبات العربية جميعها، وصل منها 16 منتخبا إلى النهائيات، تنافسوا على ملاعب كأس العالم كـ«بروفة جنرال» للحدث الكبير كأس العالم FIFA قطر 2022، وبإشراف الاتحاد الدولي لكرة القدم.

بناء على هذه المعطيات التي توسعت فيها عَمدا، لم يكن مستغربا أن تتيح اللجنة العليا للمشاريع والإرث الجهة المنظمة للبطولة هذه الخدمة نظرا لأعداد المتفرجين الكبيرة المتوقعة، وقد وصل مجموع الجماهير التي حضرت المباريات الـ32 في النهائيات، بحسب الفيفا إلى 571605 مشجعين بواقع حوالي 18 ألفًا للمباراة الواحدة.

«ليس هذا ما نطلبه»

يعدّ التعليق عموما أحد أهم أجناس الإعلام الرياضي؛ فالمُعلق ليس الناقل الصوتي الذي يصف أحداث المباراة فحسب، بل هو من يُغلفها



يعدّ التعليق عموما أحد أهم أجناس الإعلام الرياضي؛ فالمُعلق ليس الناقل الصوتي الذي يصف أحداث المباراة فحسب، بل هو من يُغلفها بالمعلومات ويُلونها بدرجات صوت تعلو وتنخفض بحسب مجريات اللعب وأحداث المباراة (تصوير: مادي ماير- غيتي).

بالمعلومات ويُلونها بدرجات صوت تعلو وتنخفض بحسب مجريات اللعب وأحداث المباراة.

الملعب يجب أن يُقسم في عقل المعلق إلى مناطق (Zones) بحسب قرب كل منطقة عن المرمى وبعدها، يعلو وينخفض صوته وانفعالاته مع الفرص، من دون إغفال المرونة للتجاوب حيال لقطات مهارية من لاعب ما، أو أحداث قد تجري على نحو مفاجئ في منتصف الملعب أو ربما في المدرجات مثل نوبة قلبية لأحد المتفرجين.

المعلق هو في البدء صحفي، يجب أن يمتلك أداوته، من المهنية والموضوعية والمهارة في سرد المعلومات، وسرعة البديهة في استحضار التاريخ في المواجهات السابقة مثلا (استحضار النتائج في المواجهات السابقة بين الفرق يتم التحضير له ولكن لا بد من الذاكرة الحية أحيانا لاستحضار حادثة معينة) أو في رصد الكاميرات لأحد اللاعبين المشاهير السابقين على المدرجات، حتى لو كان قد ولد وتألق قبل مولد المعلق نفسه. المعلق هو إعلامي يستخدم صوته لبث الروح في المباراة ونقلها من مجرد 11 لاعبا يواجهون 11 لاعبا، إلى 90 دقيقة من التشويق والجاذبية. باختصار هو فن إعلامي، إذاعي.

لطالما تمنيتُ أن تخصص كليات الصحافة في جامعاتنا العربية مساقات ومناهج خاصة بتعليم الإعلام الرياضي، وأن تكون هناك كليات خاصة وفيها يتخصص الطالب في الإعلام الرقمي أو التلفزيوني أو التعليق أو حتى التصوير الرياضي للمباريات. كذلك تتضمن أيضا تخصصات في تصوير مباريات الكرات الجماعية أو الألعاب الفردية؛ فهناك فرق بين تصوير مباراة كرة القدم وعروض الجمباز أو سباقات السباحة أو سباق الماراثون الذي يمتد لنحو 2:45 ساعة؛ سواء في التعليق أو في التصوير.

معلوماتك قوية ولكن أيضا ليس هذا ما نريده

ما زلتُ أذكر المقطع الصوتي الذي أرسلته في اختبارات للجهة التي استضافت حدث التدريب ونظمته -وهي جامعة حمد بن خليفة، معهد دراسات الترجمة-. اخترتُ مباراة برشلونة ومانشستر يونايتد في نهائي دوري أبطال أوروبا 2009، وأحد هذين الفريقين هو ناديّ المُفضل: مباراة حفلت بالأهداف الجميلة، وما زلت أذكر كثيرا من تفاصيلها، لكن هل يحق للمُعلق أن يشجع فريقا، وهل يحق له إظهار ذلك؟

خلال إحدى جلسات التدريب، أخبرني آلان أنني قُبلت بناءً على تجربتي الصوتية التي أرسلتها، وليس بسبب كمية المعلومات والمعرفة التي حاولت استعراضها؛ إذ لم يكن ذلك هو الهدف. كان الهدف ببساطة هو التعرف إلى خامة صوتي ومدى ارتباطي بالرياضة وكرة القدم من خلال بعض الإشارات الأولية. حتى في الجلسات التدريبية الأولى، حاولنا جميعا تقديم كل ما لدينا من معلومات فنية وتكتيكية وحقائق عن المباريات واللاعبين، إضافة إلى تاريخ الرياضة وجغرافيتها، ولكن هذا ليس ما يحتاجه الشخص الكفيف أو ضعيف البصر.

ولتعويد أذهاننا على ذِكر مكان الكرة وسيرها، وحركة اللاعبين، وطريقة لعبهم للكرة وأحيانا سقوطهم، أو انزلاقهم، أو طريقة قطعهم لكرة من المنافس، استعنّا بمقررات للتدرب على ذلك، لعل أبرزها عرض صورة متوقفة لصراع بين لاعبين والتدرب على وصف ما يحدث أمام الزملاء الذين أغلقوا عيونهم لكي يتمثلوا دور المكفوفين، ويتركوا لخيالهم رسم ما يحدث بناء على ما يقوله المعلق. ما زلت أذكر صورة محمد صلاح وهو يتهيأ للتسديد بالقدم اليسرى في إحدى هجمات ليفربول ضمن الدوري الإنكليزي.

> **في الجلسات التدريبية الأولى، حاولنا جميعا تقديم كل ما لدينا من معلومات فنية وتكتيكية وحقائق عن المباريات واللاعبين، إضافة إلى تاريخ الرياضة وجغرافيتها، ولكن هذا ليس ما يحتاجه الشخص الكفيف أو ضعيف البصر.**

كان علي أن أذكر بالتفصيل وضعية الجسد، قدم التسديد ومكان الكرة، ومكان تموقع اللاعب بالضبط بالنسبة لهجوم فريقه ومكان اللاعب المدافع ولاعبين آخرين ثانويين في اللعبة، إضافة أيضا إلى ألوان ليفربول في تلك المباراة ورقم اللاعب، وألوان لاعبي الفريق المنافس والحكم، وأين يوجد الكادر الاحتياطي لكل فريق.

في غرفة محاطة بقمصان أندية كرة القدم، (وهو الأمر الذي لفتني وأعجبني بشدة)، أكد لنا المدرب مارش أن المعرفة مهمة، ولكنها في التعليق الوصفي الصوتي ليست الأهم؛ أين كان يلعب محمد صلاح قبل ليفربول وكم هدفا سجله لفريقه ولمنتخبه وكم مساهمة له في الأهداف (تمريرة حاسمة + تسجيل) أمور يمكن إبرازها حين يتوقف اللعب لا حين يتسلم اللاعب الكرة؛ ففي التعليق للمُبصرين يرى المشاهد كل شيء أمامه ومن ثمّ فإن نسبة الوصف لا يجب أن تتعدى الـ 30%، تزداد أو تنقص حسب سير الأحداث.

فهمتُ التعليق الوصفي السمعي تماما كما كانت تُنقل المباريات عبر محطات الراديو قبل بدء النقل التلفزيوني: وصف كل حركة، وكل لعبة، وكل اتجاه للكرة. على سبيل المثال، في التعليق العادي لا يحتاج المعلق إلى وصف كيفية تنفيذ الركلة الركنية، أما في التعليق للمكفوفين، فإذا كان اللاعب ينفذ الركنية بقدمه اليسرى من الجهة اليسرى للحارس، فهذا يعني أن الكرة ستلتفّ باتجاه المرمى. وإذا نفذها باليمنى، فستكون باتجاه خارج المرمى وبباطن القدم. يجب أيضا توضيح ما هو ظاهر أمامك؛ هل يخطط الفريق لتسديد الكرة من على حدود منطقة الجزاء، أم سيتم رفعها إلى منطقة الست ياردات لتستقبلها رؤوس المهاجمين؟

الصحفي همام كدر من خلف منصة التعليق (خاص)

أكد لنا المدرب مارش أن المعرفة مهمة، ولكنها في التعليق الوصفي الصوتي ليست الأهم؛ أين كان يلعب محمد صلاح قبل ليفربول وكم هدفا سجله لفريقه ولمنتخبه وكم مساهمة له في الأهداف يمكن إبرازها حين يتوقف اللعب لا حين يتسلم اللاعب الكرة؛ ففي التعليق للمُبصرين يرى المشاهد كل شيء أمامه ومن ثمّ فإن نسبة الوصف لا يجب أن تتعدى الـ 30٪، تزداد أو تنقص حسب سير الأحداث.



جرى التحضير لهذه التجربة خمسة أسابيع، تلاها اختبار عملي للوصف أمام متطوع لا يشاهد المباراة. كان المتطوع يرسم خط اتجاه الكرة على لوح كبير اعتمادا على وصف المعلق وموقع الكرة الذي يذكره، ما يسمح بتقييم دقة المعلق في وصف اتجاه الكرة. في النهاية، خضعنا لاختبار تعليق على 10 دقائق كاملة من مباراة لم نكن نعرفها مسبقا، ومن دون أي توجيهات. بناء على هذا «الاختبار» الأخير، اختير المعلقون للمشاركة. هذه العملية كانت مقدمة لدخولنا تجربة التعليق الوصفي السمعي في كأس العرب.

أعترف أنه بعد حوالي 15 عاما في الإعلام الرياضي، منها 10 سنوات في beIN SPORTS (الجزيرة الرياضية سابقا)، شعرت بالقلق من عدم اختياري لهذه التجربة الفريدة.

تبدد هذا القلق خلال ساعات بعد وصول إيميل القبول، وما زلت أتعامل معه دائما بأنه من بين الأمور الإيجابية بدافع تقديم الأفضل والاشتغال على تطوير السيرة المهنية تماما مثل قلق المُغني من رهبة لقاء الجماهير قبل الحفل الحي، أو الممثل المسرحي قبل

اعتلاء خشبة المسرح، مهما كان قد حضّر وتمرّن لمثل هذه الدقائق.

في كأس العرب كان التعليق للمكفوفين في ملعبين مُجهزين فقط لهذه المهمة، هما ملعبا البيت والمدينة التعليمية، كان نصيبي أولا التعليق على مباراة قطر والإمارات في ربع النهائي؛ كانت مباراة غزيرة بالأهداف في شوطها الثاني الذي كان حصتي من القسمة مع زميلي، والأهداف الكثيرة تعني إثارة أكبر وتعليقا حيويا أفضل.

ولكن سعيي لتقديم هوية خاصة بي في المجال منذ البداية جعلني أحاول تحدي نفسي في استراق بعض اللحظات للتعليق على أمور أخرى غير كرة القدم، واختبار مقدرتي الوصفية في البناء العمراني على سبيل المثال،

وقد كنت محظوظا أن مباراتي الأولى كانت في ملعب مميز جدا من حيث التصميم: الخيمة البدوية، والألوان الفاخرة، وصور العمال الذين أسهموا في تشييد هذا الملعب التحفة. وعندما قررت الدخول في تجربة الوصف السمعي، كان علي أن أدمج هذا الوصف على نحو انسيابي مع سير أحداث المباراة، من دون أن يؤثر ذلك على تغطيتي لأحداث مهمة تجري على أرض الملعب.

كان المكفوفون وضعاف البصر يستمعون إلينا عبر تطبيق يوفر قناة صوتية باللغة العربية وأخرى باللغة الإنجليزية، وهم يجلسون في الملعب. وبالتأكيد، يمكن لأي شخص خارج الملعب تحميل التطبيق واختيار الاستماع إلى المعلق الذي يفضله.

«إنه الحلم»!

كل ذلك كان مجرد تحضير للحدث الكبير الذي انتظرناه بشغف بوصفنا صحفيين رياضيين ومهتمين بالمجال منذ الإعلان عن فوز قطر بشرف تنظيم المونديال.

التحضيرات كانت مشابهة تقريبا، مع تكثيف ساعات التدريب، ولكن الترقب والإثارة كانا مضاعفين، وبلغ الأمر ذروته عندما توجهت إلى ملعب الجنوب في الوكرة للتعليق على أولى مبارياتي في المونديال بين سويسرا والكاميرون، التي انتهت، للمصادفة، بتسجيل 6 أهداف مقسمة بالتساوي بين الفريقين. وهكذا، عايشت مرة أخرى مباراة مليئة بالإثارة والحيوية.



المعلق هو في البدء صحفي، يجب أن يمتلك أداوته، من المهنية والموضوعية والمهارة في سرد المعلومات، وسرعة البديهة في استحضار التاريخ في المواجهات السابقة مثلا (تصوير: ريتشارد هيثكوت - غيتي).

> **أعترف أنه بعد حوالي 15 عاما في الإعلام الرياضي، منها 10 سنوات في بي إن سبورتس شعرت بالقلق من عدم اختياري لهذه التجربة الفريدة.**

مباراتي التالية، جرت أيضا بملعب البيت بين إنجلترا وفرنسا في ربع النهائي. ولمباريات الأدوار الإقصائية في كأس العالم مذاق خاص ومهابة، خصوصا أنك ذاهب لتعلق على لقاء بين منتخبين عريقين ومرشحين للفوز باللقب، وسبق لهما حمل الكأس الذهبية، ولكن ما إن تبدأ التعليق حتى تنساب الأمور تلقائيا لدرجة أن شعورا يخالجك فعلا بأنه لا مشكلة لو مددت المباراة لمزيد من الوقت الإضافي؛ فالأجواء في منتهى الحماس وأنا وزميلي مستمتعان بالتناوب على وصف أحداث المباراة.

امتدت تجربة التعليق الوصفي السمعي لتشمل مباريات كأس آسيا 2023، التي أقيمت أيضا في قطر، وكنت أحد المعلقين في هذا الحدث. حماسي لهذه المهمة لم يتراجع قط، من تجربتي الصوتية الأولى حتى آخر كلمة نطقتها في وصف مباراة قطر وأوزبكستان في ربع النهائي، التي أقيمت أيضا على أرضية ملعب البيت. ولحسن حظي، كانت مباراة مثيرة ذهبت للأشواط الإضافية واستمر التشويق فيها حتى الركلة الترجيحية الأخيرة.

تحيز أم تشجيع؟

ينتمي معظم الصحفيين إلى هذه المهنة بدافع الحب والشغف بكرة القدم أو الرياضة عموما. أغلبنا كان مشجعا لنادٍ أو منتخب، وقضى كثيرا من الوقت في متابعة فريقه المفضل، سواء من المدرجات أو من أمام الشاشة؛ لذلك فمن النادر أن تجد أحدا يعمل في الإعلام الرياضي، بمختلف تخصصاته، غير مهتم بتشجيع نادٍ معين أو منتخب، أو لم ينشأ على الأقل من هذه الخلفية.

التشجيع في رأيي أمر طبيعي، ولكن ما هو محتم علينا أن نكون موضوعيين ومهنيين حين نقدم أي مادة صحفية رياضية للجمهور، حتى لو كان أحد أطرافها من الأندية أو اللاعبين المُفضلين لدينا، وأن نحاول قدر الإمكان جعل الانتماء موضوعا شخصيا لا يؤثر على تقييمنا للأحداث، وهو الأمر نفسه الذي ينسحب على التعليق الوصفي السمعي للمكفوفين كما نبهنا المدرب الآن.



«وحدنا غطينا الحرب»

محمد زيدان

«وحدنا غطينا الحرب»، كتاب جديد لمعهد الجزيرة للإعلام، يؤرخ لذاكرة صحفيين عاشوا ويعيشون حرب الإبادة الجماعية في فلسطين. 17 صحفية وصحفيا، يمثلون الصحفيين الفلسطينيين، كانوا الصوت الوحيد للحقيقة بعدما أغلق الاحتلال غزة في وجه الصحافة الدولية، يسردون تفاصيل، نزعم أن جزءا كبيرا منها سيتعرف عليه القارئ لأول مرة..

«الصحافة هي ما يصيبهم بالجنون» (1)

ليس هنالك حالة تكون فيها الصحافة فعلاً مضاداً للموت مثلما تكون عند ممارستها في وجه الإبادة، وهذا هو الحاصل في فلسطين منذ السابع من أكتوبر 2023. لقد وصل عدد الصحفيين الذين قتلتهم إسرائيلُ في قطاع غزّة 182 صحفياً وصحفيّة(2)، تشير عديدُ التحقيقات والشهادات إلى أنّهم قضوا في استهدافٍ مباشر، ووفق سياسةٍ ممنهجة تبتغي معاقبة الجماعة الصحفية الفلسطينية في غزّة والقضاء عليها.

أمّا في الضفّة الغربية، فقد اعتقلت قوّات الاحتلال 125 صحفيةً وصحفياً منذ بدء الحرب، تعرّضوا في أسرِهم لأشكالٍ غير مسبوقة من الترهيب والتعذيب والبطش. وبحسب بيانات رسميّة فلسطينية، فإن 61 منهم ما يزال في سجون الاحتلال(3)، من بينهم ستّ صحفيّات، فضلاً عن صحفيّين اثنين ما يزالان منذ السابع من أكتوبر، رهن الإخفاء القسريّ لدى الاحتلال، بحسب ما أكّدته منظمة العفو الدوليّة(4).

إن قائمة الجرائم والانتهاكات الإسرائيلية بحق الجسم الصحفي الفلسطيني طويلة طولَ عمر الاحتلال نفسه، لكنّها منذ 7 أكتوبر صارت مختلفة بشكلٍ تامّ في مدى توحّشها، لا عمّا هو مسجّل وموثّق من انتهاكات في فلسطين وحسب خلال العقود الماضية، بل وعمّا سجّله عمومُ تاريخ العمل الصحفي في العصر الحديث. فلا يُعرف أيّ مثال يقترب من نمط القتل الواسع والاستهداف الممنهج لجماعة صحفيّة مهنيّة، مثلما حلّ في فلسطين خلال الأشهر الماضية. وقد دفعت هذه الملاحظة الصادمة باحثين إلى إطلاق مصطلح «الإبادة الإعلاميّة» لوصف هذه الجريمة غير المسبوقة التي نزلت بالجماعة الصحفية في قطاع غزة والضفة الغربية[5]، وهي مظهر واحدُ وحسب من مظاهر حرب الإبادة التي تشنّها إسرائيل ضدّ الشعب الفلسطيني، والتي يبيّن نطاقَها رسميّاً ومع الأدلّة ملفُّ الدعوى المقامة ضدّ دولة الاحتلال أمام محكمة العدل الدوليّة.

إزاء هذا الوضع المرعب، وفي سياق متابعة الحرب الجارية ورصد آثارها على ما تعنيه الصحافة وقيمها في العالم اليوم، تولّد هاجسُ لدى الزملاء في «معهد الجزيرة للإعلام» بأنّ واقعَ الصحفيين الفلسطينيين، وتاريخَهم المهني والشخصيّ، يتعرّضان للاستئصال، وأنّ ثمّة ضرورة عاجلة لتسجيل شهاداتهم الحيّة وتدوينها، بدل مواصلة المعاينة السلبيّة لظروف عملهم وحياتهم التي يحيط بها الموت الإسرائيلي من كلّ جانب. كان ذلك هاجسَ الذاكرة، كما كان أيضاً هاجس الموضوعيّة، والتي يراها الصحفيّ الفلسطينيّ وكأنّها موجّهة دوماً ضدّه، وهو يلاحظ تحصّن الاستعمار الاستيطاني الإسرائيلي وراء دعمٍ مطلق



هذه الشهادات لسبعة عشر صحفياً وصحفية من قطاع غزّة والضفّة الغربية، والتي يجمعها كتاب «وحدنا غطينا الحرب»، الصادر عن معهد الجزيرة للإعلام تفتح كوّة صغيرة وحسب على بعض جوانب الرعب الذي أنتجته هذه الحرب في الواقع الاجتماعي والحضاري في فلسطين اليوم.

مـن دول غربيـة كبـرى، عكفـت وسـائل إعلامها السـائدة والمؤثّـرة على تشـويه الحقيقـة ونبـذ الموضوعيّـة والتخلّـي عـن الحدود الدنيـا مـن المعاييـر المهنيّـة، مثلما لاحـظ جنوحها نحـو خلـق «حقائـق» بديلـة، لا تـرى الضحايا إلا عبـر عدسـة غليظةٍ مـن التحيّز العنصـري وحسـاباتٍ المصالـح.

> **ليـس هنالـك حالـة تكـون فيها الصحافـة فـعلاً مضـاداً للمـوت مثلمـا تكـون عنـد ممارسـتها فـي وجـه الإبـادة، وهـذا هـو الحاصـل فـي فلسـطين منـذ السـابع مـن أكتوبـر 2023. لقـد وصـل عـدد الصحفييـن الذيـن قتلتهـم إسـرائيلُ في قطـاع غـزّة 182 صحفيـاً وصحفيّـة.**

هـكـذا بدأنـا البحـث عـن صياغـات ممكنـة لهـذه الذاكـرة التـي تتعـرّض للمحـو وهـي تواجـه الإبـادة وتوثّقهـا فـي آن مـعاً. فكّرنـا وقلنـا، «إن لـم يكـن الآن.. فمتـى؟» متـى نحـرس طـرفاً من ذاكـرة زملاء يضحّـون بحياتهـم مـن أجـل حراسـة الحقيقـة؟ كان السـؤال صعبا؛ صعـبٌ لأن الإبـادة لـم تتوقـف، بـل تتزايـد وحشـيّتها يومـا بعـد يـوم، ولأن فيـه تواطـؤا على أنّ المـوت قـد يكـون وشـيكاً فـعلا، وأننـا نسـعى إلـى تسـجيل شـهاداتٍ ليسـت لناجيـن، بـل لضحايـا مـا تـزال إسـرائيل تلاحقهـم، بصفتهـم المهنيّـة باعتبارهـم صحفييـن، وبصفتهـم الإنسـانيّة أولاً، باعتبارهـم فلسـطينيين صامديـن في أرضهم.

غيـر أن التواصـل تـمّ مـع مئـات الصحفييـن فـي قطـاع غـزّة والضفّـة الغربيـة، وحصلنـا على عشـرات الشـهادات التـي توثّـق ظـروف العمـل وأشـكال الانتهـاكات الإنسـانيّة التـي يتعرّضـون لهـا يومـياً منـذ السـابع مـن أكتوبـر. وفي خضـمّ جمـع تلـك الشـهادات ومعالجتها وتحليلهـا، كان لافـتاً ذلـك الاسـتعدادُ الدائـم والعفـويّ لـدى الصحفـيّ الفلسـطينيّ، مهمـا بلغـت مشـقّة التواصـل والتصويـر والكتابـة، لتوفيـر الشـهادات. لقـد بـدا ذلـك كرمـا اسـتثنائياً فـي ظـروف قاهـرة، بيـدَ أنّـه كشـفَ بالفعـل عـن درجـة تغوّل هـذا المـوت العـامّ في وجـدان الصحفييـن، واستشـعارهم للتهديـد الدائـم والاسـتهداف الوشـيك. بهـذا المعنـى، شـعرنا أثنـاء معالجـة مـا وصلنـا مـن مـواد مكتوبـة ومسـجّلة، أننـا لا نتعامـل مـع شـهادات، بـل وصايا.

إن هـذه الشـهادات لسـبعة عشـر صحفـياً وصحفيـة مـن قطـاع غـزّة والضفّـة الغربيـة، والتـي يجمعهـا كتـاب «وحدنـا غطّينـا الحـرب»، الصـادر عن معهـد الجزيـرة للإعلام، تفتـح كـوّة صغيـرة وحسـب على بعـض جوانـب الرعـب الـذي أنتجتـه



دفع نمط القتل الواسع والاستهداف الممنهج للصحفين باحثين إلى إطلاق مصطلح «الإبادة الإعلاميّة» لوصف هذه الجريمة غير المسبوقة التي نزلت بالجماعة الصحفية في قطاع غزة والضفة الغربية (دعاء الباز - غيتي).

ترسم هذه الشهادات للقارئ تفاصيل موحشةً للموت كما رآه الصحفي، إلا أنّها تعبّر جميعها عن تعلق بالحياة ورفض للاستسلام وتأكيد على الصمود في فلسطين، بالمعنى الإنسانيّ والوطنيّ والمهنيّ معا (دعاء روقة - رويترز).



هـذه الحـرب في الواقـع الاجتماعي والحضـاري في فلسـطين اليـوم، وكمـا عاينهـا وعايشـها الصحفيون أنفسـهم، مـن بيـن الـركام وتحـت القصـف المتواصل وحالة التجويع وعذابات النـزوح المتكـرّر في قطاع غـزّة، أو فـي سـجون الاحـتلال وفظاعـة الاعتقـال والتعذيـب والتهديـد والملاحقـة واعتـداءات المسـتوطنين، وكأنّ الصحافـة الحرّة هـي مـا يصيـب المحتـلّ بالجنـون.

بدأنـا البحـث عـن صياغـات ممكنـة لهـذه الذاكـرة التـي تتعـرّض للمحـو وهـي تواجـه الإبـادة وتوثّقهـا فـي آن معـاً. فكّرنـا وقلنـا، «إن لـم يكـن الآن.. فمتـى؟» متـى نحـرس طـرفاً من ذاكـرة زملاء يضحّـون بحياتهـم مـن أجـل حراسـة الحقيقـة؟

تطمـح هـذه الشـهادات، بحسـب مـا جـاء في تمهيـد الكتـاب، إلـى حفـظ طـرف «مـن الذاكـرة الجماعيـة للجسـد الصحفـي الفلسـطيني وهـو يغطـي حـرب الإبـادة الجماعيـة؛ وهـي بهـذا المعنـى شـهادات ضـدّ الاضطهـاد وضـدّ النسـيان، وهـي أيضـا ضـد المـوت، ذلـك أنّ الأشـياء التـي لا نكتبهـا تمـوت، كمـا قـال إليـاس خـوري يومـا».

هـذه الشـهادات، وإن كانت ترسـم للقـارئ تفاصيـل موحشـةً للمـوت كمـا رآه الصحفـي، إلا أنّهـا تعبّـر جميعهـا عـن تعلّـق بالحيـاة ورفـض للاسـتسلام وتأكيـدٍ على الصمـود في فلسـطين، بالمعنـى الإنسـانيّ والوطنـيّ والمهنـيّ معـا، والامتنـاع عـن الامتثـال لما يعنيـه الاحـتلال ويفرضـه الظلـم. هـذه الشـهادات إنّما تعيـد طرح أسـئلة أساسـية: كيـف ينتهـي كابـوس الإبـادة والاحـتلال، وكيـف تعـود فلسـطين إلـى فلسـطين، وروح الصحافـة إلـى الصحافـة!

المراجع

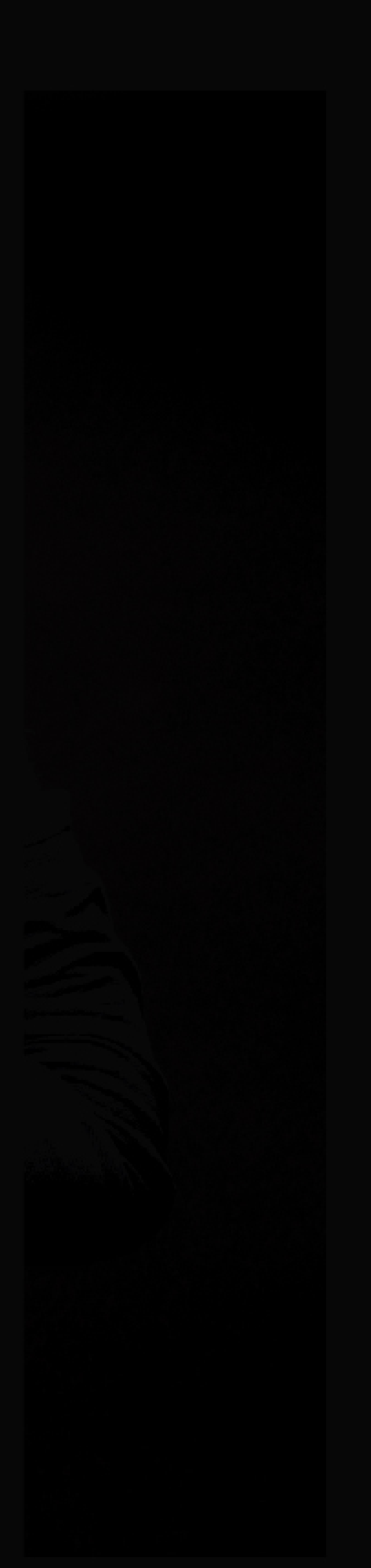
1) هـذا عنـوان شـهادة الصحفـي همّـام حنتـش مـن الضفـة الغربيـة الـذي اعتقـل في سـجون الاحـتلال 10 أشـهر على خلفيـة نشـاطه الصحفـي

2) وذلـك بحسـب بيانـات المكتـب الإعلامـي الحكومـي بقطـاع غـزة، حتّـى تاريـخ 15 تشـرين الأول/أكتوبـر 2024. انظـر: «قنـاة: استشـهاد 177 صحفيـا منـذ بـدء عـدوان الاحـتلال الإسـرائيلي على قطـاع غـزة» (تاريـخ الدخـول 15 تشـرين الأول/أكتوبـر 2024) -https://shor turl.at/tAF3v

3) انظـر: «نقابـة الصحفييـن: 1639 جريمـة وانتهـاكا بحـق الصحافة منـذ بـدء حـرب الإبـادة» (تاريـخ الدخـول 15 تشـرين الأول/أكتوبـر 2024) https://www.wafa.ps/pages/details/105283

4) انظـر: «صحفيـان فلسـطينيان يتعرّضـان للإخفـاء القسـري» (تاريـخ الدخـول 15 تشـرين الأول/أكتوبـر 2024)، https://www.amnesty.org/ar/documents/mde15/7551/2023/ar

5) محمـد الراجـي، «الحـرب على غـزة وهندسـة الإبـادة الإعلاميـة للجماعـة الصحفيـة الفلسـطينية»، الجزيـرة لدراسـات الاتصـال والإعلام، العـدد 4، يوليو/تمـوز 2024، ص21





معهد الجزيـرة للإعلام
ALJAZEERA MEDIA INSTITUTE